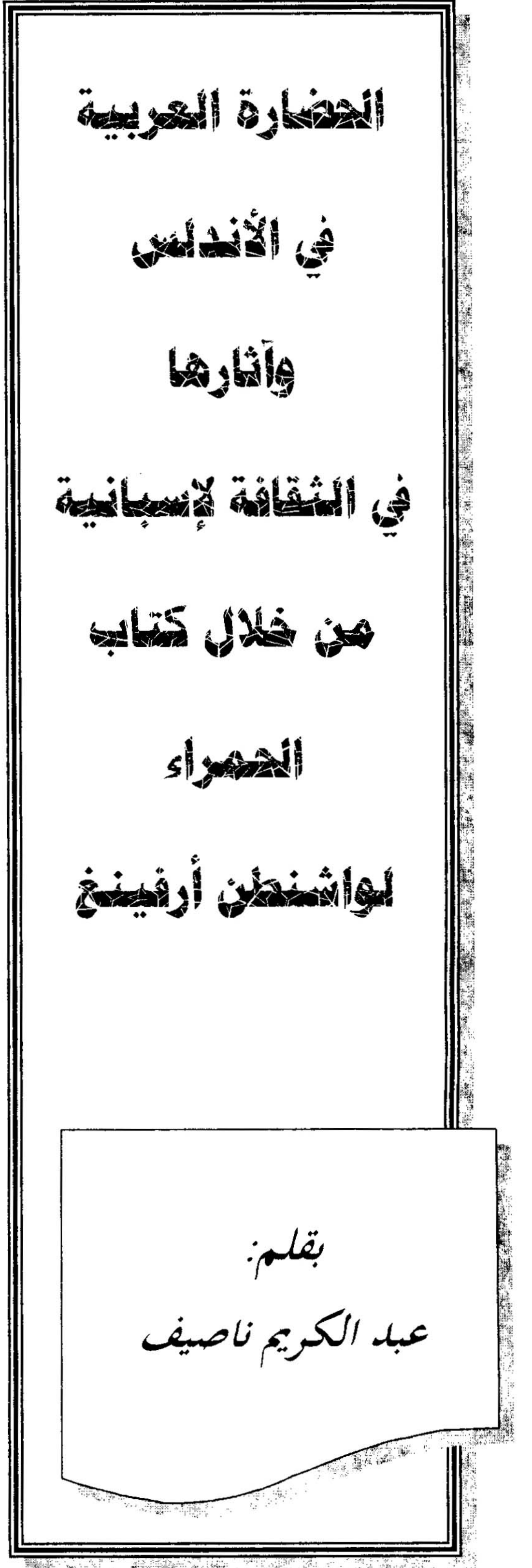


مدخل تاريخي

سنة ٧١٢م دخل العرب إسبانيا عبر المضيق الذي يفصل بين أوروبا وإفريقيا والذي سمي بعد ذلك باسم ذلك الفاتح العربي طارق بن زياد فصار مضيق جبل طارق. بعد ذاك انفتحت أمام العرب شبه الجزيرة الإيبيرية كلها ثم اجتازوا جبال البرينيه إلى سهول تولوز، جنوب فرنسا وأواسطها إلى أن وصلوا إلى بواتييه جنوبي باريس حيث وقعت المعركة التي قتل فيها القائد العربي عبد الرحمن الغافقي وتوقف على الأثر المد العربي باتجاه الشمال والغرب، أتراهم كانوا يحلمون بإغلاق الدائرة؟ يتجهون نحو الغرب ثم الشمال فالشرق فإذا هم من جديد في دمشق؟ ربما.. فقد كان الجهاد أحد أركان الإسلام.. إنه باب من أبواب الجنة كما يقول علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وجيوشهم التي اتجهت نحو الشرق وصلت إلى الصين. لقد كانوا مؤمنين برسالة يريدون نشرها في العالم كله.. لكن هل تجري الرياح دائماً كما تشتهي السفن؟

ذلك الحلم انكسر على كل حال وبدأ الانحسار إلى أن انحصر المد خلف جبال البرينيه الإسبانية ثم ازداد الانحسار إلى أن ذهبت مدريد وقرطبة وإشبيلية.. وحصر العرب بعد معركة العقاب ١٢٣٦ في الجنوب الإسباني: الأندلس أنـا مملكة غرناطة وهي الأرض نفسها التي كان العرب الفينيقيون الذين أسسوا مملكة قرطاجة في تونس. قد دخلوها وأقاموا فيها مملكة هي امتداد لقرطاجة دعوها قرطاجين هل يعيد التاريخ نفسه؟ ربما.. لكن حتى هذه المملكة الصغيرة جاءها يوم غدت فيه غير قادرة على الصمود في وجه ضغوط شديدة وقوى صاعدة

فاستسلمت وخرج آخر ملوك العرب أبو عبد الله الصغير في غرناطة كسيراً حزيناً وصوت أمه يردد: ابك كالنساء ملكاً لم تصنه كالرجال. كان ذلك عام ١٤٩٢ وبين التاريخين ما يقارب الثمانية قرون، فماذا فعل العرب في الأندلس خلال تلك القرون الثمانية؟ أية حضارة بنوا؟ أية آثار تركوا؟

كثيرون درسوا فتح العرب للأندلس وحكمهم فيها، حضارتهم وآثارهم، على الصعد السياسية، العسكرية، التنظيمية، الدينية، العمرانية.. الخ.

ولكن وحده واشنطن ارفينغ، الكاتب الأمريكي الذي عاش ما بين ١٧٨٣ و ١٨٥٩ م درس الأثر الثقافي والاجتماعي للعرب وحضارتهم في تلك البلاد وخرج لنا بكتابه الرائع: الحمراء.

كتاب الحمراء

من هنا كان اهتمامنا بهذا الكتاب ولهذا السبب أردنا أن نقدمه للقارئ العربي علّه يطلع على شهادة دارس موضوعي غير متحيز جاء بدافع البحث العلمي الخالص والضمير المنصف الذي لم يعرف دعاية صهيونية ولا أموال روتشيلد ولا حقداً إمبريالياً على العرب الذين بنوا حضارة في الأندلس بمعناها الكبير - إسبانيا - لم يستطع أحد في الغرب والشرق إلاّ أن يشهد بعظمة صروحها وروعة إنجازاتها وكبير تأثيرها.

كتب واشنطن ارفينغ كتابه هذا بين ١٨٢٩و ١٨٣٢م حين عينته حكومته وزيراً مفوضاً لدى الحكومة الإسبانية، فذهب إلى الأندلس وإلى غرناطة والحمراء تحديداً، بحث وتقصى ثم خرج بكتابه "الحمراء" الذي طبع لأول مرة عام ١٨٥١م، والذي قال في مقدمته لتلك الطبعة: "كتبت هذه الحكايات والقصص. آخذا بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية لأظهر هذا العالم الأصغر - الأندلس - حيا ومعبراً تماماً كما ساقني الحظ لأن أجد نفسي فيه. ولأن العالم خارجه ليست لديه إلاّ فكرة ناقصة عنه، حاولت أن ألتقط وأبرز وأعبر عن شخصيته بنصفيها الشرقي والإسباني، في ذاك الخليط الأسطوري من البطولة والشعر، متتبعاً كل ما تلاشى في آثاره من العظمة والجمال بهدف تسجيل تقاليد الفروسية التي نبعت منه والتي كانت تجوب في قاعات ذاك الملك بأسطورية خارقة جسّدها عرق خليط من الناس والشاهد عليها اليوم هو تلك الأطلال.."

في كتابه الحمراء، يصف المؤلف بدقة كبيرة معالم قصر الحمراء وقلعته التاريخية في غرناطة التي هي كناية عن مصيف عذب الهواء بالمقارنة مع جو المدينة الحار، مشيراً إلى أهمية الزخارف الخطية العربية التي أبدعت أول ما أبدعت في دمشق، كذلك تتبع أصل البورسلين الذي يشتهر به الهولنديون، وهم جالية كبيرة في نيويورك أيامه، وكيف أنهم أخذوه من تلك الأصول الدمشقية عبر الأسبان الذين بسطوا نفوذهم على الأراضي الواطئة ذات يوم. ثم يشير على أن الحمراء ليست قصراً واحداً، بل هي قصور وحصون، أبراج ودهاليز، ساحات ومستودعات بحيث كانت تتسع لأربعين ألف مقاتل عدا عن الملك ونسائه، جواريه وعبيده، رجال بلاطه وحواشيه.. الخ.

وتلك القصور التي بدأ بناءها "محمد بن الأحمر" أمير غرناطة ومؤسس سلالة بني نصر فيها، في منتصف القرن الثالث عشر

الميلادي لم تنته إلاَّ على يد الأمير يوسف بن الحجاج أي بعد مائة عام أو يزيد. لقد قامت بالأساس لتجسد التصور الإسلامي لجنة الخلد على الأرض ولتكون حاضرة ملك هو آخر موجة من موجات الامتداد العربي إلى الغرب.

حضارة العرب

يعد الكاتب القرون الثمانية من التواجد العربي على تلك الأرض قرون إشعاع حضاري على العالم من الأندلس، قام به رجال فتحوا وحكموا وازدهروا.

لنر ما يقوله الكاتب في هذا الصدد "لهذا كانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي المسيحي لتعلم كل الفنون، فجامعات طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة كانت مقصد الطلاب من الغرب ممن أرادوا تعلم العلم من العرب ليستخرجوا من ذاك الكنز الذهبي العتيق رغادة العيش بالعلم ومن مراكز قرطبة وغرناطة التي انبثقت منها الموسيقى والشعر، تعرف محاربو الشمال أيضاً على كيفية الاستعمال الأمثل لزخم واندفاع الفروسية.."

والكاتب يتتبع عوامل وبواعث ذلك الازدهار الحضاري فيقول: ".. وارتدادهم عند حدود البرينيه دفعهم.. إلى ترك المبدأ الإسلامي في الفتح ليعملوا على توطيد أقدامهم في إسبانيا فقط، وهم كفاتحين لا يضاهي بطولاتهم إلاَّ عدم تعصبهم، ولقد تضافر هذان العاملان مع الزمن على تشكيل أمة فريدة في مكان تواجدهم في الأرض التي افترضوا أن الله قد أعطاها لهم، لذلك أرادوا أن يزودوها بكل ما يمكن أن يرفد سعادة الإنسان فيها فساعدوا كل علم وفن وحسنوا الزراعة والصناعة والتجارة، مما مكنهم من تأسيس إمبراطورية لا تضارعها أي إمبراطورية مسيحية جاذبين إلى فلكهم كل عظمة وإتقان الحضارة العربي في المشرق لذلك كانوا في أوج عظمتهم الحضارية، النور الشرقي الذي اهتدت به ظلمات أوروبا.."

في أوج عظمتهم الحضارية هذه، بني قصر الحمراء ليظل على مدى القرون رمزاً لتلك الحضارة وتجسيداً لمطامح قوم كانوا دائماً صانعين للحضارة وكانت بلادهم منشأ الحضارات الإنسانية ومهداً لها. يقول واشنطن ارفينغ: ".. ربما ليس هناك أثر يعبر عن عصره وناسه أكثر من الحمراء، تلك القلعة الكالحة خارجاً والقصر الباذخ داخلاً. الحرب تكشر فوق أسواره، وأنغام الشعر تنسرب في قاعاته الرائعة المعمار. بلا مقاومة، يجد المرء نفسه وهو ينتقل بخياله إلى تلك الأيام، حين كانت إسبانيا العربية الإسلامية منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا المسيحية إنما الغارقة في الظلام.

لقد كانت الحمراء خارجياً، قوة حربية تقاتل من أجل البقاء ولكن داخلياً دولة مكرسة للآداب والعلوم والفنون، حيث الفلسفة تصقلها العاطفة فتتحول إلى حكمة ومأثورات، وحيث وسائل الترف الحسية تتسامى بها وسائل التفكير والخيال.."

لقد درس ارفينغ وطوال سنوات ثلاث الآثار التي تركها العرب في ثقافة الشعب الإسباني طوال تلك القرون الثمانية، فوجد أنها كثيرة تدخل في لحمة وسداة تلك الثقافة.. إذ يقول: ".. إن فتح العرب لتلك البلاد قد حمل معه حضارة أرقى وطرازاً أنبل في التفكير إلى إسبانيا القوطية.." ذلك أن الفتوحات العربية كانت قد بدأت قبل حوالي مائة عام تقريباً، والمد الحضاري العربي كان قد انتشر إلى

الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وكانت الدولة الإسلامية قد تشكلت أحسن تشكل وكانت قد ترسخت أسس المجتمع العربي الإسلامي، نظمه وتشريعاته وقوانينه، فالعرب لم يوفروا جهداً في الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى، الأمر الذي جعلهم يبسطون سيطرتهم على أنحاء واسعة من المعمورة في تلك الأيام ويقيمون أكبر إمبراطورية في التاريخ، لماذا؟ يقول أرفينغ: "العرب أناس شاعريون، لامعو الذكاء، سريعو البديهة، أصحاب إباء وشهامة وحكمة وعقل وقد تشربوا بعلوم الشرق وآدابه، وحيثما كانوا يقيمون مركز قوة ونفوذ يصبح على الفور مركز استقطاب للمتعلمين والنابغين، كما كانوا يقومون بصقل الناس الذين يفتحون بلادهم وتشذيبهم، شيئاً فشيئاً كان ذلك الاهتمام بالتعليم والصقل يعطيهم حقاً وراثياً، على ما يبدو، في موطئ قدمهم ذاك في البلاد ولا يعود أحد ينظر إليهم على أنهم غزاة دخلاء بل جيران منافسون.."

هذه النظرة الجديدة التي استطاع العرب أن يحصلوا عليها من الشعب الإسباني عبر الزمن هي التي مهدت الطريق لإيجاد نوع جديد من العلاقات يسمح بالأخذ والعطاء بين الشعبين، بالتأثير والتأثر، أو كما نقول اليوم "المثاقفة" ويشرح أرفينغ هذا فيقول: ".. ذلك أن الأرضية الأساسية من الحقد والعداء واختلاف الدين (بين الشعبين) كانت قد فقدت حدتها. والدول المتجاورة، كانت أحياناً، رغم اختلاف العقائد، تعقد فيما بينها التحالفات، الدفاعية منها والهجومية، بحيث كان الصليب والهلال غالباً ما يشاهدان جنباً إلى جنب وهما يقاتلان ضد عدو مشترك. في أيام السلم أيضاً كان شبان الطبقة النبيلة من كلا المذهبين يلجؤون إلى المدن نفسها، مسيحية كانت أم مسلمة ليلتحقوا بالمدارس التي يتعلمون فيها العلوم العسكرية، بل حتى أيام الهدنة المؤقتة للحروب الدموية كان المحاربون الذين عادوا لتوهم من العراك الشديد ضد بعضهم بعضاً يلقون جانباً عداوتهم ويلتقون في مباريات ومبارزات ودية ويشاركون في الأنواع الأخرى من الاحتفالات والمهرجانات ويتبادلون المجاملات بروح نبيلة كريمة، على ذلك النحو أصبحت الشعوب المختلفة تمتزج معاً وتختلط بنوع من التواصل السلمي وإذا كان هناك أي تنافس فإنما يكون على درجة عالية من الرقي والنبل الذي يتناسب ع روح الفارس الشهم النبيل.."

الآثــــار

إذن، كما يقول أرفينغ، قامت بين الشعبين العربي والإسباني نوع من العلاقات الفريدة جعلت المثاقفة حتمية والتبادل الثقافي أمراً لا بد منه لكن بما أن قانون علم الاجتماع يقول: طبقاً لما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته "إن الشعوب المغلوبة تقلد الغالبة والمحكوم يقلد الحاكم والفقير الغني.. الخ" فقد كان من الطبيعي أن يقلد أهل الأندلس الفاتحين الجدد، سادة العالم يومذاك وأن يحاكوهم ويعجبوا بهم ويأخذوا عنهم، بل إننا بالعودة إلى المخطوطات العربية والكتب التراثية القديمة يمكننا أن نرى أن زيجات كثيرة كانت تحصل بين العرب والإسبان نتيجة العلاقات التي كانت تقوم بينهم في السلم أو في الحرب فثمة الكثير من مصاهرات الجوار وعلاقات الحب وحالات الأسر التي نتج عنها تزاوج بين هذين الشعبين مثال على ذلك: زواج الأمير

نصـر الموحـدي مـن الأميرة الإسبانية ليندا راكسا وزواج الأميرة العربية "الست مريم" من الـدون بيـدرو فيـنغاس. نتيجة هذه العلاقات الفـريدة نقـرأ عن قصص عجيبة حدثت بين هذين الشعبين ووقائع غريبة لا تحدث لغيرهما مـن الشعوب أبداً. يذكر ارفينغ العديد من تلك الوقائع لكننا نكتفي بذكر واحدة منها، إذ يقول: "لقـد أدت الهدنة الطويلة التي أعقبت (معركة سـلادو) والتي باءت جهود يوسف (المقصود هـنا يوسـف الأول أميـر غرناطة) لتجديدها بالفشـل، مـع عدوه المميت (ألفونسو الحادي عشـر) صـاحب قشتالة، أدت إلى حصار جبل طارق، ودون جدوى، حاول يوسف مراراً رفع هـذا الحصار، وفي غمرة هذا التوتر، تلقى نبأ بـأن خصمه المميت قد وقع ضحية الطاعون، وبدل أن ينتهز هذه الفرصة، يعيدنا يوسف إلى ماضـي العرب المشرق في مثل هذه الظروف، إذ يحـزن عليه ويقول "لقد خسر العالم أحسن أمرائه" والمؤرخون الإسبان الذين شهدوا على هـذا القول، أكدوا أن فرسان العرب، ولتأثرهم بقـول أميـرهم هذا، أعلنوا الحداد على موت ألفونسو ولم يقم أي من الذين كانوا قرب جبل طـارق المحاصـر بـأي عمـل عدائـي ضد المسـيحيين أثناء الحداد.." وبالطبع، هناك في السـجلات والكتب قصص وحكايات كثيرة عن مـثيلات هـذه المعامـلة الكـريمة والاحترام المتـبادل، بـل والاعـتراف بالجميل والوفاء وحسن المعاملة ورد المعروف.. الخ.

لكـن ما يهمنا هنا هو أن نمر مروراً سـريعاً، لضـيق المجال، بما تركه العرب من آثار ثقافية واجتماعية في الأندلس.

أ- على صعيد الفن

حمل العرب معهم - كما يقول أرفينغ - حضـارة راقية وذوقاً رفيعاً ربما تجلى أكثر مـا تجلى في فن العمارة، حيث كانوا يقيمون المسـاجد والقصـور والصروح التي لم تعرف الأندلـس ولا أوروبا يومذاك مثيلاً لها قط. لقد حملوا معهم فن (الأرابسك) وهو على ما عليه مـن رفعة ورقي، تناسق وتناغم، والإسبان لم يكونـوا قـد عرفوا هذا الفن، فالزخرفة بالخط والحـرف العـربي هـي من إبداعات دمشق العـربية الـتي صـدرتها لـلوطن العربي كله وبالـتالي لأنحـاء الامبراطورية العربية كافة، وقـد صنعوا، بهذه الزخرفة، روائع فنية كانت ومـا تـزال تسـحر، ليـس الشعب الأندلسي فحسـب، بـل العـالم كله. يقول أرفينغ "يبدو الأرابسـك لـلعين غيـر الخبيرة، والذي يزين جـدار قصر الحمراء، أنه مجرد عمل من حفر اليـد، لكـن التفاصيل الدقيقة فيه لا تظهر إلاّ للعين الفاحصة التي عليها أن تراعي عمومية الانسـجام في متغيرات تلك التفاصيل المذهلة، ويمكنـنا أن نعمـم هذا الأمر على كل النمارق والمنمـنمات الـتي تزيـنها أو تزين الأواني والأدوات الأخرى فتضفي عليها صفة سماوية سـامية.." وبسـبب هـذه الصـفة السماوية السامية، ربما، حافظ الشعب الإسباني على تلك التحف الفنية الرائعة لتكون اليوم شاهداً قاطعاً عـلى شـدة إعجاب هذا الشعب بالفن العربي الذي دخل بلاده وترك آثاراً فيها خالدة. ها هو ذا أيضـاً يسجل شدة إعجاب الناس حتى يومنا هـذا بتـلك الرائعة الفنية، إذ يقول: "إن قصر الحمـرا هـو كعبة زوار إسبانيا، من الذين ينشـدون رؤيـة الجـانب التاريخي والشعري الـرومانطيقي لتـلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليد صحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عـربية وإسـبانية حـول الحـب والحـرب والفروسية مرتبطة بهذا الركن التاريخي، فهو سـرير مـلك العـرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب، من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل بهـدف تشـخيص وتكـريس تصـور الجنة

السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية".

ب- على صعيد اللغة

لا شك أن الآثار التي تركتها اللغة العربية على الإسبانية كبيرة وهامة، تحتاج للبحث من أخصائيين في اللغة واللسانيات، لكن أرفينغ يكتفي بأمثلة كبقاء "الـ" التعريف العربية في اللغة الإسبانية، إضافة إلى أن كل الكلمات التي تبدأ بألـ هي كلمات عربية خالصة. هناك أيضاً الأسماء، فكثير من أسماء المواقع والقرى ماتزال تحمل أسماءها العربية، مثل "مرسية، الكرز، البسيط" بلدة "طريف، الجزيرة، جبل طارق، مدينة سالم"، "فونتا لابيدرا" أي "نبع البيدر" وادي دارو "أي الدارة" الوادي الكبير الذي ما يزال بلفظه الحرفي.. إلى آخره..

لكنني من قراءاتي الخاصة اطلعت على أبحاث قام بها مختصون حديثون أذكر منهم العالم اللغوي الدكتور رافائيل لابيسا الذي وضع كتاباً بعنوان "تاريخ اللغة الإسبانية" وهذا بعض ما جاء فيه عن أثر اللغة العربية فيها: "يأتي العنصر العربي في مفردات اللغة الإسبانية في الدرجة الثانية من الأهمية بعد العنصر اللاتيني، وتوجد في لغتنا حوالي أربعة آلاف كلمة عربية ماعدا المصطلحات الدارجة على الألسن المأخوذة من العرب والتي تبناها الأندلسيون بسبب تفاعل الحضارة العربية في أرضهم وفي أسلوب حياتهم"

من هذه المصطلحات التي يذكرها المؤرخ اللغوي لابيسا: عبارة "ojala" "إن شاء الله" إذا ما عزموا على أمر وعبارة "Aole" أي الله إذا ما أرادوا أن يعبروا عن إعجابهم بالرقص أو الغناء أو مصارعة الثيران..الخ" أما آلاف الكلمات العربية فبعضها مايزال كما هو في الأصل مثل: الضيعة، المخدة، البركة، القطن، الكحل، الفارس.. الخ ومنه ما حرف وتغير لفظه قليلاً بسبب كتابته بالحرف اللاتيني لكن يمكن بسهولة رده إلى أصله العربي، نجد من ذلك الكثير من القاموس العصري الهام الذي وضعه عدد من المستعربين الإسبان بعنوان VOS.

جـ- التقاليد والعادات

لعل شدة الصراع وطول الاختلاط والتمازج بين الشعب العربي والإسباني ترك طابعه حتى على مزاج الشعب الإسباني وعلى عاداته وتقاليده. يقول أرفينغ "للشعب الإسباني المزاج الشرقي نفسه في حب سماع الحكايات والغرام بالغرائب فهم يتحلقون حول أكواخهم في الأمسيات الصيفية أو حول المدافئ بزوايا المحال في الشارع، ليستمعوا بسرور إلى قصص معجزات القديسين ومغامرات الرحالة، ومخاطرات قطاع الطرق واللصوص" ولعل هذا المزاج نفسه هو الذي جعلهم أقرب إلى العرب في كل ما يتعلق بمسألة التقاليد والعادات "الشرف والمروءة، النخوة والشهامة". يقول أرفينغ: ".. كنت أستمتع أكثر وأكثر بسجلات التاريخ الإسبانية القديمة التي وجدتها هناك.. وقد استمتعت على نحو خاص بتلك التواريخ الطريفة التي تتناول العهود التي كان فيها العرب يحتفظون بموطئ قدم لهم في شبه الجزيرة، ورغم كل ما فيها من تعصب أعمى وعدم تسامح أحياناً، إلاَّ أنها ملأى بالفصول النبيلة والعواطف الكريمة، ما يحس فيها المرء بنكهة شرقية رفيعة عبقة لا توجد في السجلات الأخرى لتاريخ شبه الجزيرة حين كانت أوروبة خالصة – والحقيقة أن إسبانيا – حتى في الوقت الراهن هي بلاد منفصلة

مقطوعة تاريخاً.." عادات، أعرافاً ونمط تفكير عن بقية أوروبا. إنها بلاد رومانسية لكن ليس لرومانسيتها عاطفية الرومانسية في أوروبا المعاصرة. إنها مستمدة بصورة رئيسية من مناطق الشرق بكل ما فيها من إشراق وألق، مستمدة من المدرسة العالية - التفكير للفروسية العربية الشرقية.

د- المهرجانات والأعياد

مما لاحظه إرفينغ في جولاته في الأندلس واختلاطه بهذا الشعب الرومانسي الساحر، كما يقول، أنه يحب المهرجانات والاحتفالات فهم يهتبلون كل عيد أو مناسبة أو فرصة لإقامة الأفراح والاحتفال بالمهرجانات وكل ذلك وفق طقوس محددة وعادات مقدسة لا يحيد أحد منهم عنها قيد أنملة مع أن هذه الاحتفالات والمهرجانات، كما يقول ارفينغ: ".. تستهلك الكثير من مدخرات هذا المجتمع البسيط وتشكل عبئاً مادياً عليه..". وفي مكان آخر يقول: "ومن يوم فتحت الحمرا وصار مجلس الملك فيها وقاعاتها الإسلامية مسرحاً لعزف الغيتار والكاستانيت يأتي الناس كل سنة ليمرحوا بأزيائهم الأندلسية ويرقصوا رقصات تقليدية موروثة عن العرب.."

هـ - الغناء والموسيقى

كذلك يحب الشعب الإسباني الموسيقى والغناء، لكن إلى أي درجة تأثر هذا الشعب بحب العرب للغناء والموسيقى؟ هذا ما يصعب تحديده. كان العرب كما يقول ارفينغ في كتابه "شعبا أبهج مما هم عليه اليوم. إذ كانوا لا يفكرون إلاَّ بالحب والموسيقى والشعر لذلك عملوا من كل مناسبة فرحاً وكرسوها بالموسيقى، فمن كان يقول أفضل الشعر ومن كانت تغني أفضل الألحان، كانوا المفضلين عند الناس.." ولعل بروز ظاهرة الشعراء الجوالين "التروبادور" تعود إلى الظاهرة نفسها عند العرب، فالشاعر يتنقل من أمير إلى أمير ومن قصر إلى قصر، وربما كان يحمل معه ربابة، كما هي العادة الجارية لدى شعرائنا الشعبيين حتى اليوم، يلقي أشعاره أو يغنيها. إن الشاعر العربي جوال بطبعه، ألم يقل القرآن الكريم "ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟" ارفينغ لا يجزم، لكن يشير إلى ذلك، غير أن ما يجزم به هو التالي "لهذه الأسباب كلها، ازدهر ذلك العدد الكبير من شعراء الغزل في غرناطة ولهذه الأسباب ظهرت أناشيد الحب تلك التي تضوع بشذا الحب والحرب.. تلك الأناشيد التي ما تزال تشكل فخر الأدب الإسباني وبهجته إن هي إلاَّ أصداء لقصائد الفروسية والغزل التي كانت في الماضي تبهج بلاط الملوك في الأندلس وتبعث في قلوبهم المسرة والتي كما يدعي مؤرخ حديث لغرناطة، تعود إليها أصلاً قصيدة "ريمة القشتالية" وذلك اللون من فنون المسرح الذي يقدمه الجوالون في غرناطة..

كما يتكلم عن العلاقة بين الشعبين في الأندلس في مكان آخر فيقول أن حوليات تلك الأيام ملأى بالأمثلة التي توضح تلك الحالة من الرقي والنبل والكرم والرومانسي والرفعة والتركيز على الشرف والكرامة مما ينشر الدفء ويبعث الراحة في النفس حين يقرأه المرء. إنها موضوعات جاهزة لتكون مادة لمسرحيات وأشعار وطنية هي التي كانت مادة رائعة لتلك الأناشيد والأغاني التي تجدونها في كل مكان في إسبانيا والتي تشكل أنفاس الحياة للشعب الإسباني..

و- الموروث الشعبي

ونقصد به الثقافة الشعبية وما توارثه الإسبان جيلاً بعد جيل من قصص وحكايات وأساطير عن الصراع الذي دار طويلاً بينهم

وبين العرب، البطولات التي حدثت، الوقائع المدهشة التي جرت، وغرائب العلاقة بين شعبين متجاورين، كان كل منهما يحمل للآخر الاحترام والإعجاب والتقدير.

على هذا الجانب يركز واشنطن ارفينغ في كتابه الحمراء كل التركيز ربما لاعتباره أن اللاوعي الجمعي، حسب نظرية عالم النفس كارل يونغ، هو الذي يجسد مدى تأثر شعب بغيره، وهو الذي يوضح أبعاد ذلك التأثر. لهذا، منذ اليوم الأول لدخوله الحمرا شرع يبحث عن آثار الحضارة العربية الثقافية والاجتماعية في سهول الأندلس وجبالها، في أحاديث الناس ومحكياتهم فخرج بالكثير.. إنه يقول: "ولعل الصفة الأساسية من صفات الريف الإسباني هو منظر الطاحون العربية القيمة التي تنتصب دائماً على جداول الأنهار الأندلسية مع ما يرافقها من بروج للدفاع.. وقد كان توقفنا الثاني في (الفاندول) حيث بقايا قصر عربي آخر مع برجه المصاحب والمطل على سهل الكامبينا.. إن هذه القصور كانت معاقل قوية لحماية السهول من الغزو والنهب الذي كانت تتعرض له المحاصيل والماشية..".

إذن، حيثما توجه ابن الأندلس، ثمة آثار عربية تذكره بماضي ذلك الريف وتلك المدن التي كانت ذات يوم في غاية الازدهار، الأمر الذي جعل الحضور العربي في موروثه كبيراً. يقول ارفينغ: ".. لا يوجد موضوع أكثر شيوعاً من قصص الكنوز التي دفنها العرب عندهم والتي تتناقلها كل البلاد. فكل من ينظر إلى جبال (السييرا) الموحشة، سيرى الأبراج والقلاع العربية منتصبة فوق القمم، كذلك حين تسأل المكاري سوف يتوقف ويؤخر إشعال سيجارته ليخبرك عن بعض قصص الكنوز الإسلامية المدفونة تحت هذه المعاقل، كما لا تجد أي قصر مهدوم في أي مدينة إلاَّ وله قصة تقليدية عن كنز كان فيه، يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، خاصة من يجاورون هذا القصر من الفقراء".

ولأنه كان يسود الجهل والأمية والكثير من التعصب الديني، فقد اصطبغت تلك القصص بالغموض وأجواء السحر والجن والشياطين إلى درجة تبدو الآن أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، وبأساطير الأقدمين العجيبة الغريبة. "ففي تلك القصص الخاصة ذات الصلة بالشرق، وخاصة في المقاطعات الإسبانية الجنوبي. كل ثروة مخبوءة محروسة (برصد) سحري يحميها، ويكون هذا الرصد الحامي على شكل وحش مرعب أو تنين أو أحياناً أخرى روح رعبي جالس بجانب كنزه بكامل سلاحه، شاهراً سيفه دون حراك كالتمثال وهو يراقب من عصور دون أن يغفو".

على أن ارفينغ لا يترك هذه الظاهرة دون تفسير، فوجود آلاف الأساطير التي تدور حول الكنوز والحكايات والقصص التي ترويها الجدات للأحفاد، والآباء للأبناء، لا بد وأن لها أسساً على أرض الواقع.. من هذه الأسس الحفريات التي كانت تحدث أحياناً بين خرائب القلاع العربية أو مساكن العرب السابقة واكتشاف جرار من الذهب أو الفضة على شكل حلي وعملات نقدية وتحف فنية الخ.. ويفسر ارفينغ ذلك بقوله: ".. من خلال الحروب بين هذين الشعبين.. كان قدر المدن والقرى تغيير حكامها ومواطنيها أيضاً فجأة. وخلال الهجوم على السكان أو حصارهم كانوا حتماً يدفنون أموالهم ومجوهراتهم في الأرض أو يخفونها في الكهوف أو آبار الماء كما يحصل في أيامنا

هـذه في بلاد شبيهة في الشرق أثناء الاحتلال المفـاجئ.. علـى أمل أن يعود النازحون إلى ديارهم ليخرجوا أموالهم وأشياءهم الثمينة.."

مـن هـنا، ربمـا، نـبعت الحكايات والأسـاطير الـتي تـتحدث عن كنوز الذهب والفضة، الحلي والجواهر التي ما تزال مدفونة تحت التراب، الأمر الذي كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكير الناس ويلهب حماستهم دائماً للبحث عن تلك الكنوز ويكفي اكتشاف كنز واحد حتى يبـلغ هذا الإلهاب أوجه. مثلاً ذات مرة وجدت فـي قصـر الحمرا – معقل الأساطير التي هي مـن هـذا النوع – جرة بها عملة عربية مع هيكـل ديك، مما دفع الكثيرين لأن يعتقدوا أنه دفـن مع الجرة حياً. وأرفينغ، في تركيزه على هـذا الجـانب، يفـرد حيـزاً كبيراً من كتابه للقصـص الحكايات الشعبية التي يبدو أكثرها مسبوكاً سبكاً جيداً إضافة إلى أنه ممتع ومثير للغاية. من بين هذه الحكايات حكايات حب مثل (حكايـة الأميـر أحمد الكامل أو سائح الحب)، حكاية (وردة الحمراء)، حكاية (برج الطفلات: أو الأميرات الحسناوات الثلاث) وقصص حرب وبطولـة كحكايـة (المحـارب القديم) وحكاية (حرب صليبية لسيد القنطرة العظيم) وحكايات نبل وشهامة، كحكاية (الدون مونيو ساشودي مينو جوسا) وقصص الكنوز والأموال المدفونة وهـي كـثيرة جداً منها (قصة ميراث عربي) وحكايـة (التمثالين الحكيمين) وحكاية (الجندي المسـحور) وقـد صاغها الكاتب كلها بأسلوب فني مشوق يصل حد السحر والإبهار أحياناً.

لا تقتصـر آثار الحضارة العربية على مـا ذكـرنا من صعد ومجالات فهناك مجالات أخرى لا يسمح لنا ضيق الوقت بالتحدث عنها وهـي العـلوم، الآداب، المسرح، حتى ملابس الـناس وأزيـاؤهم تأثرت في إسبانيا، إذ أخذ الشـعب الإسـباني من العرب وعطاهم بحيث صـار المجتمعان مـتقاربين إلى حـد كبير، متشـابهين فـي كـثير مـن المظاهر والحياة الاجـتماعية. يقول ارفينغ: ".. كان الناس من كافـة الطـبقات يلبسون عباءة قصيرة تدعى الطيلسـان وتشـبه ما كان شائعاً ارتداؤه في إسـبانيا فـي القـرنين ١٦ و ١٧ وللطيلسان غطـاء رأس أو قبعة – أليس هذا هو البرنس المغـربي؟.. كما كان الفارس الإسباني يتجهز للحرب بأسلوب قريب جداً من أسلوب الفارس لعـربي.. كذلـك كانوا يستخدمون عوضاً عن العمامـة قـبعة صـوفية خضراء أو حمراء.. ولعـلها من ذلك النوع الذي ما يزال مستخدماً حـتى اليـوم في المغرب العربي ويعرف باسم القبعة التونسية أو الفاسية..

إذن، حـدث نـوع مـن الامـتزاج والمحاكاة جعلت سكان الأندلس، عرباً وإسباناً، في وقت من الأوقات أشبه بعدوين حميمين أو صديقين لدودين إن جاز التعبير، ربما كان من الممكن أن يستمرا في التعايش معاً زمناً أطول بكـثير لولا التعصب الديني، كما يقول ارفينغ، الـذي كـان قـد أشعل الحروب الصليبية التي استمرت ما ينوف على ٣٠٠ عام.

الخاتمـة

لقـد أمضـى واشنطن أرفينغ سنوات عـدة وهو يبحث ويتقصى المسألة التي شغلته طويـلاً: أثـر الحضـارة العـربية الـثقافي والاجتماعي على إسبانيا وبالتالي على شعوب أمـريكا نفسها التي اكتشفها الإسبان وبسطوا سيطرتهم على معظم أصقاعها في أوج قوتهم

وعظمة امبراطوريتهم. خلال تلك السنوات زار الناس، التقى بفقرائهم، نبلائهم، أغنيائهم، رعاعهم.. سمع حكاياتهم وقصصهم، شاركهم مهرجاناتهم وأعيادهم وخرج بانطباعات هامة يمكننا أن نورد بعضها هنا. "الإسبان يحبون دائماً الفخامة والعظمة في أفكارهم المتعلقة بالأسلوب: قصور فخمة، حاشية كبيرة العدد من المرافقين والخدم، بطانة ووصفاء كثر وأتباع من كل الأصناف.. وهذا ولا شك يعود بالأصل إلى الضرورة التي كانت تقضي بالاحتفاظ بجموع كبيرة من الرجال المسلحين خلال الحروب مع العرب.."

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تأثير الأناشيد والأغاني في الشعب الإسباني فيقول: "لقد استخدمت (أي الأناشيد والأغاني) على هذا النحو لكي تمارس تأثيرها على شخصية الإنسان التي لم تستطع قرون من الانهيار والتراجع تدميرها، بحيث أن الإسبان رغم عيوبهم الكثيرة، ما يزالون حتى الوقت الحاضر وفي جوانب عديدة أكثر شعوب أوروبا رقي عقل وكبرياء وروح.

صحيح أن رومانسية المشاعر مستمدة من المصادر التي ذكرت (أي المصادر العربية) إلاّ أن لها مل كل رومانسية أخرى تكلفاتها التي تجعل الإسباني أحياناً.. ميالاً لأن يتجاوز في مسائل الشرف والكرامة، حدود المنطق والعقل، نزاعاً وسط الفقر والعوز لأن يؤثر التمسك بسلوك الفارس العظيم وأن ينظر بازدراء تام إلى المهن اليدوية وكل سبل كسب العيش لدى الطبقات الدنيا من الشعب.."

أليس في هذه الصفات صلة قربى وشيجة مع صفات العربي؟ ألاّ يذكرك هذا بهجاء الفرزدق لجرير معيراً إياه بأن أباه قين وجده قين أي يشتغل حداداً؟ ألا يغالي العرب في مسألة الشرف والكرامة إلى حد يتجاوز حدود العقل والمنطق؟ أليسوا رومانسيين مثلهم مثل الإسبان؟ يحبون المظاهر والفخامة مثلهم مثل جيرانهم أولئك؟

وفوق هذا وذاك ألا يتميزون كأصدقائهم اللدودين بأنهم من أكثر شعوب الأرض رقي عقل وكبرياء روح؟

إن البحث في أشكال المثاقفة والتأثر والتأثير الاجتماعي بين الشعبين العربي والإسباني لأصعب وأعقد بكثير من أن نحيط به في هذه المداخلة السريعة وبهذه العجالة. لكن خير ما أختم به مداخلتي هذه شهادة باحث عظيم هو الدكتور خوان فيرنيه أستاذ الأدب العربي والتاريخ في جامعة برشلونة إذ يبحث في كتابه (بم تدين الثقافة لعرب إسباني؟) بروح علمية وعقل موضوعي هذه المسألة ويقول فيها الكثير لكننا نقتطف ما يلي:

"كان الغزو العربي لإسبانيا غزوا ثقافياً وفنياً مذهلاً لسرعته واتساعه ومازال يدهش الباحثين، إذ لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم القديم. إنني لا أقصد بكلمة العرب العرق أو الدين، إنما أقصد بها لغة العرب الذين دونوا بها كنوز ثقافتهم ونشروها في إسبانيا كلها إبان وجودهم الطويل فيها وكان يتكلمها الإسبان أنفسهم واليهود وسائر الأقوام الموجودين فيها، إن للغة العربية الفضل الأكبر في نقل العلوم الشرقية القديمة والعلوم الإسبانية إلى اللغتين اللاتينية والقشتالية، وهذا ما كان له أثر كبير في عصر النهضة العربية.."

فهل بعد هذا القول من زيادة لمستزيد..؟!




اعترافات امرأة شتائية..

شعر: الدكتورة سعاد الصباح

ما لجنوني أبداً حدود..
ولا لعقلي أبداً حُدود..
ولا حماقاتي على كثرتها
تحدُّها حدود..
يا رجُلاً يُغضبُهُ تطرُّفي
من الذي يغضبُ من تطرُّفِ الورود؟
هذا أنا.. من يوم أن خُلِقْتْ
أنوثتي ساحِقةٌ..
عواطفي حارِقَةٌ..
شواطئي تضربُها البروقُ والرّعود..
هذا أنا من يوم أن عشِقْتْ..
أشرِعَتي مفتوحةٌ
ضفائري مفتوحةٌ
أوردتي مفتوحةٌ

وأنهُري تهزأُ بالسُّدودْ
فلا تقف مُرتبكاً..
وذاهلاً..
أما إعصاري.. فإنّي امرأةٌ..
ليس لما تُريده حُدود..
هذا أنا.. يا سيِّدي
هذا أنا..
بغير أصباغٍ، ولا طِلاءْ
حُبّي شتائِيٌّ..
ولا أشعرُ أنّي امرأةٌ
إذا انتهى الشتاء..
حُبّي جنونِيٌّ..
ولا أشعر أنّي امرأةٌ
إذا لم أحطِّمْ قِشرةَ الأشياءْ..







حُبّي انتحاريٌّ..
فلو رمَيْتني في البحر، ذات ليلةٍ
وجَدْتَني..
أسيرُ فوقَ الماءْ..
حُبّي طُفوليٌّ..
فلو لمسْتَ خَصْري مرةً
حلَّقْتُ بين الأرضِ والسّماءْ..
فلا تعاقِبْني على طفولتي
فإنّني من دونِها،
فَراشةٌ من خَشبٍ..
وزهرةٌ من ورقٍ..
ولوحَةٌ بيضاْ..
يا أيُّها الجالسُ..
سُلطاناً على أوراقهِ
يا أيّها السُّلطان..
أكتُبْ على إسوارتي..
أكتُبْ على دشداشتي..
أكتُبْ على الأجفانْ..
أكتُب على الرّياحِ..
والأمواجِ..
والأمطارِ..
والخُلجانْ..
أمنيتي..
بأن أكونَ فتحةً..
أو ضمَّةً..
أو كَسْرةً..
أو زهرةً صغيرةً
في ذلك البستان..
لو كان بالإمكان، يا صديقي
لو كان بالإمكان..
يا رجُلاً حرَّرَني..
من سُلطة الزّمانِ والمكانْ..
لو كنت تدري، كم أنا مبهورةٌ..
وكم أنا سعيدةٌ..
وكم أنا أشعرُ بالأمانْ
يُثيرُني..
في بيتك الأليفِ، كلُّ شيءْ..
البُسُطُ الحمراءُ..







والأزهارُ..
واللوحاتُ..
والتبغُ الذي يرفضُ أن يفارقَ
الحيطان..
تُثيرُني..
حتى الكراسي عندما تحسُّ بالأمان..
يا أيُّها الغارقُ في مقعدهِ الجلديِّ..
هل تبصرني.؟
في زحمةِ الأوراق..
يا أيُّها المزروعُ كالوردةِ في الأعماق
أغارُ من يديك.. يا صديقي
حين على الأوراقِ تعزفانْ..
أغارُ من رائحةِ الحبرِ..
ومن رائحةِ الصَّمتِ..
ومن رائحة الأحطابِ..
والنّيرانْ..
أغار من رسائل الحبِّ..
التي تكتبها..
وقطَّة البيت التي تحضنُها..

وقبضةِ الفنجان..
يا سيِّدي..
الجالسَ في نهاية الدُّنيا..
ألا تذكُرني.؟
أنا التي شكَّلتني
من رغوةِ البحرِ..
ومن حجارة الياقوتِ..
والمرجان..
أنا التي..
كنتَ تناديني، إذا أردتني:
يا قمرَ الزَّمان..
يا مَن على يديه قد تشكَّلَت أنوثتي
يا أيّها المسؤولُ عن هندسةِ
الخَصْرِ..
وعن تموُّجِ الشَّعْرِ..
وعن مواسم المُشمُشِ،
والرُّمانْ..
يا رجُلاً عوَّضني بحُبِّهِ..
عن أجملِ الأوطان..




جابر خير بك في محراب زوجته

بقلم: أ. أحمد شوحان

أكاد أطير محلقاً كلما وضعت أمامي دواوينه الخمسة، وسرح فكري بين صفحاتها. وتهت طرباً في سطورها. فكلما قرأت قصيدة خلبني بأنغامها، وكلما انتهيت من سفر من أسفاره أسرعت مقلباً أوراق سفره الآخر، حتى أصل إلى آخر صفحة من صفحات شعره، فأعود إلى ما بدأت فيه من تقليب الصفات، والذوب في أنغام الكلمات.

وكلما قرأت قصيدة من قصائده الجميلة، وقفت وتذكرت من خلالها سيرة حياته ونظرت إلى سيرة حياتي. فأحياناً ننطبق على بعضنا كل الانطباق، وأحياناً نفترق كل الافتراق، لكنني أقف إلى جانبه على محك الثقافة، فأستسلم لثقافته، وأدغدغ مشاعره، فأجدها شفافة مرنة أكثر مما أتوقع.

كلما التقيته في اتحاد الكتاب العرب أو مكتبه، أو في مكتب مجلة الثقافة سكبت في كشكوله حفنات من همومي، أو أغرقني في مشاعره ومآسيه التي يعيشها من خلال واقع أمته المؤلم، وحاضرها المرير.

سقطت بغداد عام ٢٠٠٣ تحت ضربات أمريكا الموجعة، وخرجتُ من اتحاد الكتاب العرب بدمشق مثقلاً بالهموم، وسرت نحو مكتبه المجاور أترنّح، ثم طرقت بابه وهممت بالدخول، وساعتها كدت أنفجر صارخاً بالبكاء لولا أن دموعي سبقتني، كان ينظر إليَّ وقد عرف ما حل بي، كرر مراراً، ادخل.. ادخل.. لكنني لم أتمكن من الكلام.

كانت دموعي هي التي تجيبه، وكانت دموعه تترقرق في عينيه، أُدخل. وأنا أحرك رأسي، وأتحجَّر في مكاني، لا أدخل، ولا أخرج، ولا أتكلم.

وكانت لحظات مؤلمة له ولي، ثم دخلت فكان العناق هو الذي فكَّ أسر صمتي وجعلني أقول: ماذا أفعل، هل أكثر من هذا يا أبا وضاح.

ساعتها لملم أحزاني، وأطفأ لهيب قلبي، وأخمد نار الكارثة التي أحرقت قلب كل غيور وشريف في هذه الأمة والتي رضيت بالعار واقعاً، وأخذت تنعي واقعها العاثر على أوتار الماضي التليد، تعدّد مفاخرها، لتتناسى حاضرها.

ومرة بعد أخرى نتناثر الهموم فألقي له همومي المتجددة الأحزان، ويلقي لي همومه المثقلة بالمآسي.

وأكثر من مرة قدّمت له بعض مؤلفاتي، وأكثر من مرة قدم لي كل جديد له حتى اكتملت قصائده في دواوينه الخمسة التي زينت بها مكتبتي، ووعدته بقراءتها متأنياً.

وتمر الأيام فإذا بالشاعر ينهمك في نشر غزلياته على صفحات الصحف والمجلات وكلما قرأت قصيدة ضحكت، وازددت تصميماً على قراءة دواوينه وقلت لنفسي: ما بال الرجل يطرق باب السبعين ولكنه يتصابى كمراهقي ما دون العشرين، حتى التقيته ذات يوم بابتسامة قابلني بأجمل منها فقالت له: ما بالك تنهمك في شعر الغزل، فانفجر ضاحكاً. قلت: سأكتب عنك يا شاعر العشق والغزل، فمد يده وقدم لي نشرة فيها نبذة عن حياته تقول:

"إسمي جابر خير بك، من مواليد إحدى القرى في ريف الساحل السوري، محافظة اللاذقية تسمى (الحمى) تتوسط المسافة بين التخوم الجبلية وشاطئ البحر. أتيت إلى الحياة في العاشر من نيسان عام ١٩٣٣م. أحمل إجازة في الحقوق من جامعة دمشق منذ عام ١٩٦٧. متزوج ولي ثلاثة أولاد تخرجوا من الجامعة. عضو في اتحاد الكتاب العرب منذ عام ١٩٩٢.

لقد جعل شعاره في الحياة يكمن في أبيات من الشعر تعبر عن خفايا نفسه، ومكنون ضميره، فهو يعمل بصمت، ويرضى بالقليل، ويهرب من الإطراء:

عجبت لمن يسعى ويكتب دائماً
ليصبح في يوم أسير المنابر
فخير كرام الناس من ظل جوده
خفياً على الأيام بين الضمائر
هنيئاً لمن يحيا ولو ضمه الثرى
يخلد ذكراه حديث المحابر

انظر إلى الشاعر وهو يبث مشاعره في قصائده نحو الآخرين، فيبدأ بابنته الوحيدة (ضحى) ويسكب في ديوان ضحى أجمل غزلياته.

ويلتفت إلى زوجته في عيد ميلاد زواجه الثلاثين فيعصر لها دفقات قلبه الحاني، ويبث في قصيدة طويلة زادت عن

ستين بيتاً مشاعره نحو شريكة حياته، ورفيقة دربه الطويل.

عنَّ الفؤاد على الماضي فناداه
واخضرّ فيه الهوى شوقاً قلبّاه
حبيبتي إن خبت في الحب جذوته
فإننا بالهوى الأسمى بدلناه
هذي الثلاثون ما زالت كأولها
فيها من الحب أصفاه وأغلاه
هذي الثلاثون مرّت وهي عامرة
بألف لون من النعمى قطفناه

ويتقدم إليها بذكريات الماضي مواسياً لها، وقد مرّ الشباب مرّ السحاب، واشتعل رأسه شيباً، وراح يودّع مرجه الأخضر المزهر:

حبيبتي عهدنا غرٌ شمائله
فهل تظنين أني سوف أنساه
لا.. لا وحبك شمس العمر ما غَرُبَت
ولا بساط الهوى الزاهي طويناه
نحن الشباب ولو شابت مفارقنا
فالروح روض وأزهار وأمواه

لكنه يلوي عنان قياده عن زخارف الدنيا وزينتها ويرفع يده مودعاً ذلك الشباب، وتلك الذكريات العطرة التي جمعتها في رياض الحب المفعمة بأزاهير العشق والوداد، ويضرب على الوتر الذي سبقه إليه جميع الشعراء في شيخوختهم، فالتجأ إلى الآخرة، وقبع في المحراب يرتل آيات الله ليرتقي في سبحات خياله إلى ملكوت الله الذي سينعم فيه المؤمنون بالنظر إلى الله، والتنعّم بذلك النظر الأخّاذ يوم القيامة:

حسبي وحسبك في الدارين أن لنا
حباً تسامت على الدنيا سجاياه
أرضيتِ رباً كما أرضته (رابعة)
ذابت صفاء وحادت عن خطاياه
حبيبتي واذكري بالخير عشرتنا
إن جاءني قدري واختارني الله

وفي يوم من الأيام تهجره حبيبته، ولعلها تريد من ذلك الهجران اختبار محبته لها ووداده، فيتقدم إليها ببطاقة وفاء، ينشر فيها محبته لها، وذكرياته معها، طالباً منها صك غفران:

أشكوك لله أم أشكوك للمثل
يا من تعيش بأحنائي وفي مقلي
ما بال حبك قد غيضت جداوله
وصوّح الزهر في بستانك الخضل
أهملتِ هذا المعنَّى بعدما علقت
أشراك حبك بالأكباد والمُقل

لذا تراها تعاتبه في إحدى خلواتهما وتقول له: إنك كشاعر تتغزل في كل شيء، فلماذا لم تتغزل بشريكة حياتك التي وهبت لك قلبها، وأخلصت لك في عشرتها،

فاذكرني، في قصيدة كما خلّدت تلك الراقصة الماجنة:

لا تطلبي شعراً بديل فؤاده
ففؤاده آلت إليك مصائره

لكنها شعرت أن قلب الشاعر كبلبل يتنقل من فنن إلى فنن، فقررت أن تهجر ذلك القلب، وتصم أذنيها عن تغريد ذلك البلبل الصداح.

وحينما هجرته محبوبته تقدم إليها حاني الرأس، منكسر القلب، ذليل الفؤاد، طالباً منها السماح، والغفران، وكأنه يقول لها حبيبتي.. ارحمي قلبي المشتاق، واغفري ذنوبي، فأنا شاعر طليق أُحلّق كل يوم فوق وردة، فلا تكوني شوكة في أجمل وردة أقع فوقها:

لماذا الهجر والصد
وفي أعماقنا الودّ
معذبتي وفاتنتي
هوانا ما له حدّ
كلانا ذاب تحناناً
ومزّق قلبه البعد
تعالي واغمري عمري
ضياءً فالنوى وغد

وفي قصيدته (النصف الثاني) يعيش الشاعر مع زوجته ساعات البهجة والسعادة، وينطلق بعيداً في الغوص داخل خلجات حبيبة عمره التي تربعت فوق قلبه، معلنة ولاءها لعاشق العمر:

حديثك العذب عند الفجر وافاني
وأبعد النوم عن عيني وأجفاني
سألت من يرغب النجوى فقلتِ: أنا
بنت البيان وأخت الآس والبان
هلاّ عرفتَ المنادي يا شقيق دمي
فنحن في ساحة الإبداع صنوان
ترنّحت وسرت في الأذن ضحكتها
صدقت يا صاح إني نصفك الثاني

هذا قليل من كثير شاعرنا جابر خير بك، الذي غرّد على أنغامه قلبه، ورقص على أوتار حبيبته، فعاش في بحبوحة السعاة، بين زوجة أخلصت له، وشاعر حمل قلبه في يده، وطار يبحث عن معشوقة يسلمها إياه، وطاف العالم حتى بلغ مغرب الشمس في أمريكا، فلم يجد أجمل من (ليلى) ولا أصدق من (ليلى) ولا أخلص من (ليلى) فسلمها إياه.

(ليلى) إذا صمتت قريحة شاعر
وشكا إليك يراعُه ومحابره
(ليلى) وحُبّك لا أزال متيماً
وهواك قبلة خافقي وشعائره

وراح يعابث الأخريات لملء فراغ، أو طفرة ساعة، أو ثرثرة شاعر.

أليس هو شاعر كبقية شعراء عصره؟!!

أليس بين خافقيه قلباً ينبض شعراً؟!

بلى إنه كذلك...




العربُ.. الغائبون..!!

شعر: خالد الخنين – الملحق الثقافي السعودي

قــد طــالَ نومُــكَ فــي الخطــوب كــثيرا
والغاصــبُ المحــتلُّ عــاثَ فُجــورا
قــد طــالَ نومــكَ والحــوادثُ جَمَّــةٌ
والحقــدُ يطــوي عمــرُنا المهــدورا
واليــأسُ رانَ عــلى القــلوب بعــتمةٍ
مســحتْ عــن الأُفــق الـبهيِّ الـنورا
والغائــبون عــن الحيــاة تــلذَّذوا
بــرخاءِ عيــشٍ يُشــبهُ الدَّيجُــورا
يــا أيهــا العــربُ الأُبــاةُ! أمــا كــفى
مــا كــان مــن شــجبٍ مضــى مخمــورا؟!
ســكر اليــراعُ فمــا أفــاق عــلى البــلى
والجمــعُ صــار مُمــزقاً مدحــورا
قــالوا لــنا: إنَّ السَّــلام مُحقــقٌ
فاشــهدْ عــلى قــولٍ تــبدَّد زورا
خــنعَتْ رقــابُ الــنائمين بغفــلةٍ
وغــدتْ معاقلُــنا ردىً وقــبورا
وتــرنحتْ يــومَ الفجيعــةِ أُمــةٌ
غــابتْ عــن الســاح الحــزين حضــورا







والمثخـــنون مـــن الجـــراح تـــناثروا
جثـــثاً بـــلا حـــسٍ يـــثير ضـــميرا
يـــا ويحهـــا مـــاذا دهاهـــا أُمـــةً
تـــركتْ نـــزيفَ إبائهـــا موتـــورا
وتـــراجعتْ عـــن ســـاحِ مجـــدِ جهادهـــا
فغـــدا وراء هوانهـــا مهجـــورا
وبكـــتْ عـــلى ماضـــي الـــبلاد وعـــزِّها
وأنهـــدَّ عـــزمُ لوائهـــا مكســـورا
شـــربوا حـــليب الـــذُّل بعـــد مهانـــةٍ
واســـتعذبوا هـــذي الحيـــاة قصـــورا
يـــا أيهـــا المـــوتى أفيقـــوا مـــرةً
مـــات الحيـــاءُ بكـــم فســـاء مصـــيرا
فـــوق الكراســـي طغمـــةٌ لا تبـــتغي
غيـــرَ المـــنابر كـــي تقـــول فجـــورا
ذبحـــتْ كرامـــتها بســـيف هوانهـــا
ومضـــت تعـــربدُ فـــي الـــبلادِ عُصـــورا
كتـــبتْ بشـــرم الشـــيخ عـــارَ زمانهـــا
واســـتبدلتْ ســـاحَ الجهـــادِ جحُـــورا
وهـــناكَ فـــي "أســـلو" بقيـــةُ زمـــرةٍ
لمَّـــا تـــزل تـــنعى دمـــاً مغـــدورا
فـــإلى مـــتى هـــذا الـــتوجه لـــلعدا..؟
وإلى مـــتى يـــبقي العـــدوُّ مُجيـــرا
وإلى مـــتى نســـعى إلى "واشـــنطنٍ"
نـــرجو الغيـــاثَ وأنْ تكـــونَ ظَهيـــرا







تَعِــــسَ الذيـــــن "ببـــــتيها" قـــــد طوَّفـــــوا
يـــــبغونَ مـــــن "بيـــــتِ" الخـــــنا الـــــتحريرا
أو مـــــن عواصـــــمَ لا تكـــــن ليعـــــرب
إلاَّ الفـــــناءَ وأن تكـــــونَ قُشـــــورا
لكـــــنَّهم مـــــا طأطـــــأوا هامـــــاً لـــــنا
أبـــــداً ولـــــن يـــــبقى لهـــــم مـــــأجورا
والأرضُ تـــــلفظُ غاصـــــبيها عـــــنوةً
كـــــلبٌ يجـــــرُ وراءه خـــــنزيرا
لـــــن يفـــــلح الـــــباغون فيمـــــا خططـــــوا
فـــــالأرضُ أقـــــوى أمـــــة وجـــــذورا
كـــــنَّا إذا داعـــــي الجهـــــاد دعـــــا بـــــنا
قُمـــــنا فُهـــــوداً فـــــي الـــــوغى ونُســـــورا
تـــــاقتْ إلى ركـــــبِ العـــــلا راياتُـــــنا
واســـــتلهمتْ ســـــيفَ الجهـــــادِ نَصـــــيرا
ومَضَـــــتْ تـــــؤرخُ بالدمـــــاء كـــــتابَها
فـــــإذا بـــــه يـــــبدو هـــــوىً مَسْـــــطورا
اللهُ أكـــــبرُ كـــــمْ عـــــلَتْ فـــــي جحفـــــل
تَخِـــــذَ الشـــــهادةَ مـــــبدءاً ونُشـــــورا
اللهُ أكـــــبرُ صَـــــيحةً عُـــــلْوِّيةً
تســـــمو وتُـــــبطلُ مـــــا عـــــلوْ تَتْـــــبِرا
نـــــبغي الحيـــــاةَ كـــــرامةً ومحـــــبةً
وحدائقـــــاً فـــــوقَ المـــــدى وزهـــــورا
وشـــــفاهَ أطفـــــالٍ تضـــــجُ عذوبـــــةً
وعيـــــونَ آبـــــاءٍ تـــــذوب حُـــــبورا






كان لخطواته الأولى على مدارج الحياة وقعٌ رتيبٌ وحبيب، رغم وعورة تلك المدارج وقسوة حياته نفسها، وخلوِّها مما يُضفي عليها فرحاً إضافياً أو حبوراً زائداً.. فقد وعى ذاته كابنٍ أكبر لأبٍ عطوفٍ لا تتناسب موارده مع كرم طباعه وسخاء سجاياه، ولا تتلاءم إمكاناته مع إحساسه العميم بآلام الناس وخصوصاً المحرومين منهم. ولا يتواءم واقعه مع أحلامه في تأمين احتياجات عائلته الكبيرة بشكلٍ يواكبُ حبّه الحميم لأفرادها وتوقه العظيمَ لإغداقِ الخير على كلٍ منهم بشكل وفير.. وأحسّ بكيانه كابنٍ أثيرٍ لأمٍ واسعةِ الأفق طيبة السريرة. لم تجدْ بُدّاً من معايشة متاعب أبيه وطباعه، ومعاناة أوضاعه وأوجاعه، مما رسم على محيّاها صوراً حفرها العزمُ وقوّةُ الشكيمة، وظللها الصبر ورفضُ الهزيمة، وأغنتها رؤىً وتصوُّرات تنبعثُ من فكرٍ نيّرٍ وروحٍ شاعرية. وأثراها قلبٌ نقيٌّ يعجُّ بنوازعِ الإيمانِ ويفيضُ بالحبِّ والحنان..

واحتضن هذه الخطوات في بداياتها منزلٌ مستأجرٌ متواضع كان يقع في حي شعبي بتقاليده وعاداته وحديث بموقعه وتطلعاته. ويربضُ على سفح جبلٍ ينتصبُ في مدينته قوياً شامخاً كالأب المدافع عن أبنائه، ويطل عليها كالأمِّ الرؤوم الحانية، ويجمع بين الطابع القديم في سعة أرض الدار المكشوفة واحتوائها على أحواض الزهور وعرائش الأعناب والطابع الحديث في ضيق الغرف المخصصة للإقامة وقلة عددها مما يدفع الأبناء عندما يشبّون عن الطوق إلى سرعة المغادرة ويسوّغُ لهم سهولة الانسياب..

وكان أترابه في الحارة من بيئة اجتماعية مشابهة لتلك التي ترعرع في ظلها. فقد انتمى القسم الأكبر والأقرب منهم إلى الطبقة التي يطلق عليها الناس اسم (أصحاب الدخل المحدود) ولو أنصفوا لأضافوا إلى هذه

العبارة كلمة و(المتواضع) لانعكاس مفعول الكلمة المضافة بشكل جليٍّ على طريقة معاشهم وسلوكهم، وعلى مقدار ما يتقاضونه كمصروف شخصي من أهاليهم لم يكن لضآلته يمكنهم من شراء سوى قطعة من الحلاوة السمسمية أو كأس من العرقسوس أو قرص عجوة واحد من الحجم الصغير في بعض أيّام الأسبوع وخلال إحدى فترات الراحة الخمس الفاصلة بين الدروس، رغم حبّ أغلبهم الجارف لهذه المأكولات والمشروبات وللألعاب التي كانت تعرض في باحة المدرسة أو جوارها خلال تلك الفترات.. ولم يشذّ عن مجموعهم سوى إثنين من هؤلاء الأتراب كانا يسكنان بعيداً عنهم نسبياً في بيوت أكبر وأنضر. إذ كان والدُ أحدهما تاجراً في السوق الكبير وولـيُّ أمر ثانيهما سمساراً في سوقٍ مجاورة. ونتيجة لذلك فقد انتميا بوضوح إلى الطبقة التي يسميها الناس (أصحاب الدخل اللا محدود). ولو عدلوا لأضافوا كلمة (والكبير) أو (المتكبر) إليها لانعكاس المفعول الذي تحدده الكلمة المضافة ورديفتها على طريقة معاشهما وسلوكهما وعلى مقدار ما يتقاضانه كمصروف شخصيٍّ يومي مكّنهما بسهولة من شراء عددٍ أكبر مما يعرض في باحة المدرسة من ألعاب ومأكولات ومشروبات وغيرها. بالإضافة إلى انعكاسه على شكل ونوعيّة ملابسهما من جهة أخرى.. وقد شكّل هؤلاء الأترابُ بفئتيهما مجموعة أصدقائه خلال المرحلة الابتدائية التي كانوا قد أصبحوا على مشارف الانتهاء منها في مدرسة كانت تقع على مسافة غير قريبة من منازلهم مما جعلهم يذهبون إليها ويخرجون منها على شكل جماعات، ويتلهّون في باحتها خلال فرص الراحة بالجري والقفز والعراك.. وأما عند مغادرتها ظهراً وعصراً فكانوا غالباً ما يقضونَ جزءاً من وقتهم بلعب الكرة أو (الدحل) أو (الكعب) والألعاب الأخرى التي كانت شائعة في ذلك الزمان..

وكان أكثر ما يضايقهم اضطرارهم لقطع اللعب في كثير من الأحيان عند رؤيتهم لأولياء أمور بعضهم أو لأكبر أساتذتهم سناً وأكثرهم هيبةً وهو شيخٌ وقورٌ أقام فترةً طويلةً في حيٍّ مجاورٍ لحيّهم، فقد كان الجميع يوبخونهم وينهرونهم بسبب اللعب في الشارع معبّرين عن سطوتهم بشدّ آذان بعضهم أو بصفعهم أحياناً والطلب منهم ومن الآخرين التوقّف عن اللعب والتوجه إلى البيوت. بينما كان الأستاذ يدعوهم قبل قيامه بما يقوم به أولياؤهم إلى جمع أوراق الصحف أو الكتب وغيرها المتناثرة في الشوارع والتي كان يحرص على إحراقها والانتظار عليها حتى تصبح هباءً منثوراً نظراً لاحتمال وورود اسم (الله) ذي الجلالة أو أسماء (الأنبياء) ذوي الأفضال على بعضها لعدم جواز تركها حسب اعتقاده على الأرض عرضة للدوس والتلوث وهي تحمل هذه الأسماء الكريمة..

وبالقدر الذي كان وأترابه يهابون ذلك الأستاذ وينفّذون أوامره ويخشون مغبّة مخالفتها بالقدر الذي كانوا فيه يهزأون من ابنه الوحيد ويسخرون من تصرّفاته غير السويّة في بعض الأحيان. رغم كون الإبن المذكور يكبرهم بالعمر بما يزيد على عشر سنوات. ذلك لأنّه كان من النوع الذي يقوم أحياناً بأعمالٍ تدلّ على تخلّف عقليٍّ واضح يفقد خلالها هدوءه واتزانه ويصبح وكأنه ركبه مسّ من جنون. بينما يبدو خارجها طبيعيّاً وسليماً رغم مسحة الألم والحزن الممتزجة بشرود وضياع والتي كانت تميّزُ نظراته وأمّا التصرّفُ الأكثر غرابةً والذي يؤكّدُ فقدانه لوعيه بشكل فجائي فقد تمثّل في كثير من المرّات باختياره لموقعٍ ظاهرٍ في منتصف تقاطع الحارات الرئيسة في حيّه ووقوفه فيه بتحفّز ثم إنزاله لسرواله بتحدّي وأخذه بقضاء

حاجته غير آبه بالناس ولا مقدّرٍ لوجودهم ولا حافلٍ بصراخهم عليه لصرفه عن هذا العمل. وكانَ الشيء الوحيد الذي يجعله يوقف فعلته ويرفع سرواله حتى في حالة عدم الانتهاء من مهمّته إشعارُ أحد الموجودين له بحضور أبيه. إذ كان سرعان ما يبدو عليه الخوفُ والارتباك ويقوم بالجري على غير هدىً مما يثير ضحك الصغار وتحسّرَ الكبار..

وأمَّا سبب تصرفه الأخير، حسب ما كان أترابه يردّدون نقلاً عن أهاليهم فهو أنّ أبيه شاهده مرّة على هذه الحالة فضربه ضرباً مبرحاً أمام كل الناس. ومنعه من الخروج من البيت إذ أصبح لا يغادره إلاَّ لماماً وفي حالات غيابه عنه. كما تردّد بينهم نقلاً عن المصدر نفسه بأن سبب جنونه صفعة قوية تلقاها من أبيه على حين غرّه عندما كان في السادسة عشرة من عمره حينما ضبطه يتلصص على زائرات أمه اللواتي كنّ يجلسن حوالي البحرة الواقعة في الطابق السفلي في منتصف أرض الدّار المكشوفة أُغمي عليه مباشرة بنتيجتها. ولمّا أفاق من إغماءته بعد عدّة أيام أصبح يساوره بين الحين والآخر ذلك المسّ الذي تصاحبه تلك العادة القبيحة. رغم كونه قبل تلك الصفعة شاباً رزيناً متّزناً يتميّز بالوسامة والهدوء..

وكان الأستاذُ أيضاً رغم طريقته التي تعتمدُ على الشدّة في المعاملة والقسوة في العقاب، وتستند إلى الزجر في كثير من الحالات يتمتّع بأسلوب مميّز في إلقاء الدروس وتفهيمها لتلاميذه فقد برع في استخدام الجذّاب من القصص واستثمار الممتع من الحكايات وبخاصة ما يتعلّقُ منها بالرجالات البارزين في تاريخهِم القريب أو البعيد لتحبيبهم بمبادئ العقيدة وتبسيط تعاليمها وأحكامها لهم وترسيخها في أذهانهم دون أن تكون عرضةً للنسيان والضياع. لذلك كانوا يجدون متعةً كبيرةً في تتبع دروسه وتلقّي نصائحه ويستعيدون كثيراً مما يقوله في مختلف المناسبات في الوقت نفسه الذي يتحاشون فيه غضبه ويتجنّبون نقمته..

ولقد لجأ في أحد الدروس الذي كان يشرحُ لهم فيه معاني الصدقة ومراميها إلى محاولة تقريب مفهومها لأذهانهم فذكر لهم بكثيرٍ من التشويق بأن مَنْ يُعْطي صدقةً لفقير أو محتاج فإن الله يعوّضه إيَّاها أضعافاً مضاعفةً قد تبلغ عشرين ضعفاً أو أكثر..

وأردف لتوضيح هذا المعنى قائلاً – بأن من يُعطي خمسة قروش مثلاً إلى أحد المحتاجين المساكين فإن الله سرعان ما يعوّضُه بدلاً عنها ليرةً كاملة أو أكثر من ذلك لأن الله لا يضيع أجر المحسن ويعطيه حسب إحسانه في الدنيا بالإضافة إلى أنه يسكنه في مستقبل الأيَّام في جنات تحتوي على ما لذّ وطاب من أنواع الأكل والشراب.. ولقد رست هذه الفكرة في أعماقه واسترخت، ونمت في وجدانه وترعرعت دون أن يحس بأبعادها أو يشعر بامتداداتها، وتمازجت مع الأفكار الأخرى التي نجح هذا الأستاذ وأمثاله في نثر بذورها بتلك الأعماق وتنمية جذورها في أغوارها..

وفي أحد أيام الجمع الباردة والممطرة كلَّفته والدته بتوصيل سلة كبيرة تحتوي على بعض أنواع المأكولات إلى بيت أقرباء لهم يقطنون في الطرف الآخر من المدينة وبجوار السوق الكبير فيها، كما طلبت منه إحضار ما يعطونه له من مأكولات وحاجيَّات أخرى في السلة نفسها. وأعطته عشرة قروش ليركب فيها الترام ذهاباً وإياباً. وأوصته بسرعة العودة حتى لا ينشغل بالُها عليه من جهة وحتى تتمكّن من إعداد الطعام لضيوف والده المدعوين على الغذاء في وقت مناسب من جهةٍ أخرى وبخاصةٍ أنها ستقوم بشيٍّ أقراص

الكبّة التي سيرسلها الأقرباء معه بحالتها النيئة..

وقام بالقسم الأول من المهمة بشكل جيد، فقد أوصل المطلوب وتعمّد أن لا يمكث فترة طويلة في بيت أقربائه خوفاً من التأخر بل أخذ ما أعطوه إياه من أطعمة وصحون وشوك ومعالق وغيرها بعد حشرها بصعوبة في السلة التي أحضرها معه وفي سلة أخرى إضافية وضعوا فيها ما لم يتمكّنوا من وضعه في السلة الأولى.

ولدى خروجه من بيت أقربائه وتوجّهه إلى اقرب محطّة ترام للعودة إلى منزله مرَّ بجانب محلٍ للحلويات يقعُ في الطريق الموصل إلى تلك المحطة. وتصادف مروره مع إخراج البائع لصينيّة كبيرة من أقراص العجوة من فرن يقع في صدر المحل، إذ تصاعدت الرائحةُ الزكيةُ المنبعثة منها وتمازجت مع شكلها ذي القوام المحبب واللّون الجذاب ليدفعانه إلى تمنّي الحصول على واحد أو أكثر منها. ولكنه لم يكن يملك إلاّ القروش الخمسة التي سيعودُ بها في الترام إلى بيته، مما جعله يشعر بكثير من الأسف لعدم تمكّنه من تحقيق رغبته.. وفجأةً وبدون أية مقدمات برزت أمام عينيه مقولة أستاذه المتعلّقة برد الصدقة بعشرين مثل أو أكثر. ولمعت في رأسه فكرة استثمار تلك المقولة في شراء الأعداد المرغوبة من الأقراص فظهر السرور على وجهه وبدت السعادة على تصرفاته وكأنه وجد لقيةً أو اهتدى إلى حلِّ أحد الألغاز. فوقف وأنزل حمْلَه الثقيل ووضع يده في جيبه ليخرج القروشَ الخمسة المتبقية معه ودار بوجهه إلى اليمين واليسار للبحث عن فقير شحاذ. لكنَّ سوءَ الحظ وسوءَ الأحوال الجويّة لم يسمحا بوجود واحد منهم في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، ممّا جعله يعيدُ حملَ السلّتين ماسكاً القروشَ الخمسةَ بين إصبعيه خائفاً عليها من الضياع آخذاً بالسير تحت الأمطار نحو الاتجاه الذي لاحظ وجود عدد أكبر من الناس فيه رغم كونه مغايراً لاتجاه محطّة الترام التي كان يقصدُها، على أمل إيجاد أحد الشحاذين في ذلك الزحام ليتمكن من تنفيذ مشروعه. وبعدَ لأيٍ وجهد لمح عن بعد امرأة تفترشُ الأرض محتميةً بحافّة سقف بارزة من إحدى الحوانيت المغلقة حاضنةً بإحدى يديها مولوداً صغيراً يسند رأسَهُ إلى كتفها ومادةً يدها الأخرى لطلب الإحسان. وقد فرح أيّما فرح بالعثور عليها، واندفع باتجاهها ووضع بمجرَّد وصوله إليها حمْلَهُ بجانبها وقام مباشرةً بدفع القروش الخمسة بقوّة إلى يدها الممدودة بضعف. ولم ينسَ خلال عملية التسليم أن يرفعَ رأسه إلى السماء للإشعار بأنَّه قام بالتزاماته وكأنّه يحثّها على سرعة الرد.

وقابلت المرأة عمله ببعض الاستغراب للطريقة الاستعراضية التي تمَّ بها من جهة وببعض الدعاء بالطريقة الإنشادية التي تعوّدت عليها من جهة أخرى. ولفتَ نظرها خلال ذلك انزياحُ الغطاء الساتر لمحتويات إحدى السلتين وظهور بعض أقراص الكبة المختبئة تحته مما جعلها تسأله إعطاءها واحداً منها. ولما قال لها بأنّها لا تزال نيئة وأنّه يتوجّبُ شيّها قبل أكلها أجابته بأنها تستطيع أن تأكلها بهذا الشكل. فقام بإعطائها قرصاً بودٍ ملحوظ شجّعها على طلب قرص آخر كي تتمكن من إرضاع صغيرتها فقام بتلبية طلبها دون أن يبدي تذمراً أو ضيقاً مما دفعها لأن تزيد بعدد الدعوات وترفع من حرارتها متمنية فيها أن يكتب الله له بكل خطوة سلامة وأن يعوّضه أضعافاً مضاعفةً ويجعله دوماً في عداد الفائزين..

وبالقدر الذي آلمه فيه منظر المرأة ووليدها بالقدر الذي أفرحه دعاؤها له

وخصوصاً في الشق الأخير منه والذي تماشى مع ما كان ذلك الأستاذ قد أخبرهم به. وأخذ ينتظر نتائج الفوز بالأضعاف العشرين أو أكثر للقروش الخمسة، والتي تبلغ ليرةً كاملةً كحدٍّ أدنى. وبخاصة وأنه أردفها بالتصدق بقرصين من الكبة مما يعني إعادتُها بأربعين قرصاً على الأقل ستسرُّ والدته حتماً بها لكونها ستساهم في إغناء مائدة الطعام أمام المدعوين. لكن الحيرةَ انتابته حين فكَّر في المكان الذي ستوضعُ فيه الأقراصُ الأربعون لأنَّ السلَّتين كانتا مملوءتين بشكلٍ لا يسمح بوضع المزيد فيهما. وقد هداه تفكيرُه إلى أنّها ستوضع في سلَّة مستقلة يجب إعادتها لأيِّ فقير شحاذ باعتبار أنَّها خارجةٌ عن موضوع ما تصدَّق به. وقاده ذلك إلى التفكير أيضاً بالكيفية التي سيحمل بها السلة الإضافية الثالثة لأنه كان ينوء بحمل سلَّتيه وتغلَّبَ على هذه المشكلة عن طريق تقريره استئجار عربة (حنطور) يجرُّها حصانان والتي كانت تقوم مقام التاكسي في ذلك الوقت حيث قدر أجرتها بنصف ليرة أضافها إلى مبلغ ربع ليرة قرر شراء أقراص لعجوة من الحجم الكبير بها، كما قرر توفير الباقي لشراء أشياء مماثلة لتلك التي يشتريها صديقاه الغنيّان ليشعرهما بأنّه قادرٌ أيضاً على القيام بما يقومان به يومياً. وقرر كذلك أن يقتطع خمسةَ قروش منها لإعطائها لشحّاذ آخر إثر خروجه من المدرسة في اليوم التالي لكي يُمنحَ عشرون ضعفاً لليوم الذي يليه ونوى تكرار هذه العملية يومياً ليضمنَ استمرار حصوله على كلِّ ما يشتهيه بشكلٍ دائم.

وخلال سيره باتجاه محلِّ الحلويات في أثناء دوران هذه المحاكمة في رأسه توقَّف أكثر من مرة ووضع حمله على الأرض ثم دفع بيده إلى الجيب الذي تعوَّد أن يحفظ نقوده فيه ليتفقد وصول المبلغ إليه. وكان يشعر ببعض الضيق عند عدم عثوره عليه بداخله. ولكنه سرعان ما كان يُقنع نفسه بأن ذلك سيتم حين وصوله إلى محل بيع الأقراص حتى لا يضطر إلى حمل السلّة الثالثة تلك المسافة وتحمل العناء الناتج عن ذلك. وأمّا عند وصوله إليه فإنه لم يكتف بالبحث في ذلك الجيب بل أخذ بالبحث بالجيوب الأخرى أيضاً. وقد ساوره حزنٌ كبيرٌ عندما وجدها خاويةً على عروشها أيضاً واضطر إلى الوقوف تحت إحدى الأشجار الكبيرة المجاورة للمحل محتمياً بها من الأمطار الهاطلة فترةً طويلة أعاد خلالها التفتيش مراراً. وبعد ما يزيد عن ساعة أخذ يشعرُ بأن الأمل في وصول النقود يبدو بعيداً وأن انتظاره أكثر من ذلك سيزيد من تأخّره على أهله مما سيفسد الأمور ويعقّدها بالنسبة للوليمة التي تقامُ في بيتهم. ولم يجد بدّاً من حمل السلتين والتوجّه إليه سيراً على الأقدام في ذلك الجو العاصف الماطر..

واستقبله أهله لدى وصوله إلى البيت بلهفة ظاهرة. بعد أنْ كانت الوساوس قد أخذت تنتابهم من كل جانب. ولقد اضطر للكذب عليهم عندما أخبرهم بأنّه أضاع نقوده الأمر الذي لم يمكّنه من ركوب الترام في أثناء العودة ودفعه لأن يعود ماشياً. وأنّه جاع خلال سيره فأكل قرصين نيئين من الكبة مما سبب له مغصاً شديداً ساهمت فيه برودة الجو وجعله يتوقف للاستراحة بين الفينة والأخرى. ولا يدري لماذا كذب على أهله بذلك الشكل فهو لم يكن معتاداً على هذا الأسلوب، خصوصاً وأن الأستاذ نفسه كان قد تحدّث إليهم كثيراً عن محاسن الصدق ومضار الكذب مردِّداً على أسماعهم باستمرار المثل القائل الصدق منجاة والكذب يؤدي إلى التهلكة. ولعلّ خيبة أمله وصدمته في عدم صحّة مقولة الأستاذ الأولى المتعلّقة بالصدقة جعلته يلجأ إلى عكس مقولته الثانية المتعلِّقة بالصدق.

وبخاصة عندما وجد أن كذبه لم يوصله إلى التهلكة بل أثار نوازع الرحمة والشفقة لدى أفراد عائلته جميعاً فأخذوا يحيطونه بالعطف والحنان ويأسفون للموقف الذي أوقعته الظروف به..

ولم يستطع أن يمنع نفسه عندما وضع رأسه على مخدّته في المساء من التفكير في ما حدث معه ذلك اليوم. وقد قاده ذلك إلى إعادة التأمّل بالموضوع الذي كان يشغله كثيراً رغم صغر سنه والمتعلق بالسبب الذي يجعل صديقة ابن التاجر والآخر ابن السمسار قادرين على شراء كمية أكبر من الألعاب والمأكولات والمشروبات خلال الفترات الفاصلة بين الدروس مؤكداً لها بأن ذلك ليس ناجماً عن تصدُّقهما أو تصدُّق آبائهما ببعض المال لأنه لو كان ذلك صحيحاً لحصل اليوم معه ما يحصل كلّ يوم معهما. وأن هناك أسباباً أخرى تؤدي إلى الحصول على المال غير السبب الذي رواه الأستاذ حول الصدقات، وغير السبب التقليدي الناجم عن القيام بالعمل لأنَّ أبيه وجميع آباء زملائه يعملون وبعضهم يقوم بأعمال أصعب ولفترات أطول من عمل والدي صديقيه المذكورين.. ولقد عبَّر عن هذه الأسباب في مستقبل أيَّامه بتقسيم الناس إلى فئتين واضحتي التمايز هما فئتا (الدافع والمدفوع) أو (الدافش والمدفوش) حسب التسمية العامية الذائعة إذ لا تكتفي الفئة الأخيرة بعوامل دفعها الذاتية بل تستغلّ عوامل دفع الفئة الأولى وتكاد تسخرُها للقيام بدفعها. وأن الفارق الوحيد بين مختلف المجتمعات هو نسبة اعتماد كل من هاتين الفئتين على عوامل دفعها الخاصة فقد كان يبدو جلياً في ذلك الوقت أن صديقيه ينتسبان إلى الفئة الثانية واستمرا بالانتساب إليها بعد ذلك..

وفي أثناء درس اليوم التالي لم يستطع أن يمنع نفسه عندما وجد الفرصة مناسبة من أن يرفع اصبعه ليسأل الأستاذ بحرقة ولوعة عن سبب عدم تعويضه عن الصدقة التي دفعها في اليوم الفائت إلى إحدى الفقيرات وتابع سؤاله مستفسراً فيما إذا كان جزاء الإحسان العودة إلى البيت سيراً على الأقدام مع حمل ثقيل في أثناء البرد القارص؟ ولم يفهم الأستاذ ما عناه، ولدى استفساره منه عن الموضوع وإخباره له بتفاصيله ضحك كثيراً وبصوت مرتفع. وكانت المرة الأولى التي شاهده فيها يضحك بهذا الشك. وعند انتهائه منه أوضح له بكثير من الدقة والتحديد بأنه أساء فهم المقصود من كلامه حول هذا الأمر، إذ أن الجزاء على الصدقة ليس شرطاً أن يكون في اليوم نفسه أو حتى الشهر ذاته أو السنة بعينها من تقديمها، وإنما يمكن أن يكون في أيِّ وقت وفي المستقبل القريب أو البعيد. كما أنَّه في حال عدم حدوثه في الحياة الدُنيا في الأحوال النادرة فإنه حتماً سيكون في الحياة الآخرة وفي جنات النعيم وأنَّ الجزاء ليس بالضرورة أن يكون من نوع العمل نفسه بل يمكن أن يكون من أيِّ نوعٍ تختاره القدرة الإلهية لتعوّض به القائم فيه..

ومرّ الزمان على هذا الدرس وكرَ الدهور وانتقل خلال ذلك من المدرسة الابتدائية إلى المتوسطة فالثانوية فالجامعة، واللاتي كانت كل منها تزوّده ببعض الدروس التي تتضمن مبادئ وأسس مشابهة لتلك التي استندت إليها الحادثة المذكورة، بالإضافة إلى ما زوّد نفسه به من مُثُل وقيم كان يغترفها من مدرسة الحياة التي انطلق في أرجائها منذ ابتدأت المدارك عنده بالتفتح وأخذ الأفق لديه بالاتساع، حيث قام بمرحلة زمنيَّة متقدمة بخلط جميع ما اكتسب من تلك المفاهيم وفرز واستبعاد الكثير منها واعتصار ثمار الباقي وتكثيف هذه العصارة في استراتيجية ذات شقّين متضامنين متكافلين حدد من خلالهما

مسار حياته. وأولهما ينصُّ على اعتماد القناعة باعتبارها كنزاً لا يفنى. وثانيهما يتضمَّنُ ممارسة الاقتناع باعتباره خلاصة تجربة العمر الطويل. كما اعتمد لهذه الاستراتيجية خطة عمل تستند أيضاً إلى سلوك ذي شعبتين وضع الحديث الكريم شاخصتيهما حين خطَّ على الأول وجوب معاملة الناس بالشكل الذي نحب أن يعاملونا به. بينما سطَّر على الثانية أن عدل ساعة خيرٌ من عبادة العمر كله. وقد تغلغلت هذه المفاهيم في أعماقه وتجذّرت وتشابكت استطالاتها وتفرَّعاتُها وعرَّشت عليها تُظَلِّلُها وترعاها..

ولقد دفعته ظروف الحياة لأن يتغرَّبَ عن بلده بوقت مبكر بكلا المعنيين لهذه الكلمة أي بمعنى فراقها والاتجاه إلى بلد غربي، بعد أن تغرَّبَ عنها بمعنى فراقها فقط في المرحلة الأبكر من عمره. فبينما كانت الغربة ذات المعنى الواحد بهدف الدراسة الجامعية الأولى وإلى بلد عربي شقيق كان يطلق عليه اسم (أم الدنيا) ويقع على مدخل شمال شرق القارة السوداء، كانت الغربة ذات المعنيين إلى بلاد غريبة جرى العرف على اعتبارها من أرقى دول العالم. تقع إحداها على مدخل شمال القارة البيضاء حيث تشكل مع دول ثلاثة أخرى ما يطلق عليه اسم (الدول الاسكندنافية) وكانت فترتها الزمنية ستة أشهر وهدفها التدرّب على أعمال تخصّصية قبل استلامه إدارة مشروع رائد في بلده..

ولقد بهرته تلك البلاد بنظامها وحريتها وبساطة شعبها وحسن معاملته. وتعلم من تجربتها الكثير من القيم والعديد من العبر أهمُّها التركيز على النظر إلى المعايير الأخلاقية بمنظار نتائجها وقياس المُثُلِ بمقياس تطبيقها. فالنظام القائم فيها يحقق التكافل الاجتماعي لأفراده دون الإغراق في شعارات فضفاضة. والحرية السائدة لديها غير مجزأة وتشمل كل أمور الجنسين وتحترم على الأخصِّ ما يتعلق بالجنس بينهما. والناس يتصرَّفون في الشارع والمكتب والجامعة والمتنزه والمعمل كما يتصرّفون في البيت. والقانون لديهم هو السيد المُهاب الذي يفرضُ احترامه على الجميع. والصدق والصراحة أهمُّ ما يميِّز تعاملهم مع بعضهم بعضاً ومع الآخرين..

ومرَّت معه خلال فترة إقامته في تلك البلاد أحداثٌ صغيرةٌ ولكنَّها ذاتُ دلالات كبيرة. فالملك الذي يسير وحيداً دون أن يثيرَ انتباه أحد ويحييه الجمهورُ بتحية (مرحباً يا ملك) والأب الذي يقف مع القانون الذي حكم على ابنته بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لأنها صدمت بسيارتها شجرةً ولم تبلغ عن فعلتها، والأم التي تطلب منه مغادرة الغرفة التي أجرتها له فوراً لأنّه نسب لنفسه كسر آنية ثمينة حمايةً لابنها الصغيرة البالغ بحدود خمس سنوات من العمر الذي كسر هذه الآنية فعلاً، لكونه يُعلِّمُهُ بذلك التصرّف الكذب والتهرب من المسؤولية، والشاب الذي يرفض بعد منتصف الليل قطع تفاحة متدلية من غصن شجرة إلى الطريق العام قبل أن يضع قيمتها في صندوق بريد البيت الذي تدلّت منه مع بطاقة صغيرة يعتذرُ فيها عن فعلته لسبب حاجته للتفاحة بعد أن أسرف بالشراب. والفتاة التي تحدّث أهلها أمامه عن تفصيلات العلاقة الحميمة بينها وبين صديقها.. كلُّ تلك الأحداث وغيرها شاهدها وسمعها بأمِّ عينيه وبأب أذنيه وبجميع أقاربهما على مختلف الدرجات وتركت آثاراً لا تُمحى في ذاكرته ووجدانه..

ولقد شمل البرنامج الذي أُعدَّ لزيارته مختلف الفعاليات المتعلقة في موضوع اختصاصه والموزّعة في الدول الأربع التي تتألف منها تلك المجموعة. ولم يُتح له البقاءُ في عاصمة أوّل دولة حلّ فيها منها وهي (كوبنهاغن) إلاّ أياماً قلائل فورَ وصوله إليها زار خلالها سفارةَ بلاده التي كانت قد انضمت إلى سفارة البلد الشقيق الذي حصل منه على شهادته الجامعية الأولى وشكَّلا معاً سفارة

واحدةً خلال الفترة الذهبية التي مرَّت بتاريخ البلدين وبتاريخ الأمة التي ينتميان إليها الحديث. وتصادف عدم وجود سوى موظف واحد من بلده فيها خلال تلك الفترة قام بالتعرُّف عليه في أثناء زيارته لها واستسمحه بأن يتلقّى ما يصلُ باسمه من بلده وحفظه لديه أو تحويله له باعتبار أن أغلب وقته سيكون حسب البرنامج المعدّ له خارج عاصمتها أو في أرياف دول المجموعة الآخرى المجاورة لها على أن يقوم بالاتصال هاتفياً به بين وقت وآخر للاستفسار في حال وصول أيّ شيءٍ يخصه. وقد أبدى ذلك الموظّف استعداداً طيباً للقيام بتلك المهمّة. فقام بالكتابة إلى أهله وأعطاهم اسمه لتوجيه رسائلهم إليه كما عمد بعد حوالي شهر من إقامته بالكتابة إلى المدير المالي في الوزارة التي أوفدته لتذكيره بتحويل باقي مستحقاته المالية إلى السفارة مشيراً إلى اسم الموظّف لاعتباره صلة وصلٍ حول هذا الموضوع بسبب أن الاعتماداتَ المالية والإجراءات الروتينية لم تسمع له آنذاك بتقاضي كامل استحقاقاته قبل سفره مما جعله يحصل على سلفة عليها محدودة مع وعد من المدير المالي الذي كان صديقاً شخصياً لهُ بأن يعمد إلى تحويل الباقي إليه قبل حلول متصف فترة الإيفاد..

وساعده تنوّعُ البرنامج الذي أعدّ لتدريبه على التعرف على أغلب حواضر تلك البلاد وأريافها والاطلاع على طباع أهلها وعاداتهم. وأهلته طبيعته المتفتحة للاندماج بالجو الجديد بأحاسيسه وجوارحه. وكان يتصل بالهاتف كلما سنحت له الفرصة بالموظف الذي تعرف عليه في سفارة بلده ويطلب منه تحويل ما وصله من رسائل إلى العنوان الذي هو فيه. وقد وصلته عدةُ رسائلٍ من أهله وأصدقائه ولكنّه لم يتلقَّ إشعاراً بتحويل باقي استحقاقاته المالية مما جعله يكتب رسالةً ثانية أتبعها بثالثة تمّ ببرقية بعد أن كان قد مرَّ على وجوده حوالي خمسة أشهر طلب فيها بإلحاح تحويل باقي استحقاقاته المالية إذ لم يكن يوجد في ذلك الوقت تلكسات ولا بريد إلكتروني ولا هواتف محمولة. وبعد مرور أكثر من اسبوعين على إرسال البرقية الأخيرة عاد إلى تلك العاصمة التي توجد سفارة بلاده فيها بعد أن أتمَّ تنفيذ جدول الزيارات الخارجية ولم يبقَ من ذلك البرنامج سوى اسبوعين آخرين وأخيرين كرَّس أحدُهما لزيارة معرض متخصّص في مجال عمله مع المحاضرات المرافقة له بينما تُركَ الأسبوع الآخر حُراً ليمضيه كما يشاء..

ووصل إلى تلك العاصمة مساء يوم جمعة بعدَ أن أخطأ القطار الذي كان يفترض أن يوصله إليها صباح ذلك اليوم. إذ كان ينوي التوجه فور وصوله إلى السفارة للحصول على نقوده التي لم يساوره شك بأنه سيجد الحوالة الخاصة بها فيها. مما اضطره إلى الانتظار لغاية صباح يوم الإثنين باعتبار أن يومي السبت والأحد هما عطلة رسمية منذ ذلك الوقت في تلك البلاد. ولم يكن يملك سوى حوالي مائة "كرون" حين وصوله مما جعله يقلّصُ نفقاته بشكلٍ كبير ويقوم بالنزول بأحد الفنادق المتواضعَة التي كان أجرتها بحدودِ سبعين "كرون" في الليلة، وشعر بكثير منَ الضيق لبداية الفترة التي كان يُمني نفسه بقضائها بسرور وحبور في تلك العاصمة بذلك الشكل الكئيب.

وفي صباح يوم الإثنين توجَّه إلى السفارة مبكراً قبل توجّهه إلى المعرض الذي كان سيُفتتح في وقتٍ متأخّر من اليوم نفسه. وكانت ثقته أكيدةً بأن بقية مستحقاته ستكون موجودة فيها باعتبار أنّه مرَّ على طلبه حوالي أربعة أشهر. وعند وصوله إليها لم يجد الموظف الذي يعرفه فيها بل وجد سكرتيرته التي أخبرته بأنّه سيحضر بعد حوالي ساعة. ولمّا استفسر منها حول وصول إشعارٍ أو حوالة باسمه أعلمته بوجود رسالةٍ له أخرجتها من مكتب رئيسها وسلَّمته إيّاها. ولقد

سُرّ كثيراً عندما وجد أنها من الوزارة التي أوفدته بعد أن عرفها من المغلف الخاص بها وتوقّع أن يكون الشيكُ أو الحوالة بداخلها. ولدى فتحه لها على عجل كاد أن لا يصدق عينيه. حينما وجد فيها رسالة من صديقه المدير المالي يبلغه فيها بعد التحيات المعتادة تعذّرَ تحويل باقي استحقاقاته لوجود بعض صعوبات في المصرف المركزي نتيجة التعليماتِ المالية الجديدة ويأمل بها أن يقوم بتدبير أحواله وبخاصةٍ أن مدّة إيفاده شارفت على الانتهاء كما يرجوه أن يغفر له عدم تمكّنه من خدمته ويعده بأن يعوّضه عن ذلك مستقبلاً، ويتمنى له العودة بالسلامة. وأحسّ فور قراءته للرسالة بدمائه تفورُ في عروقه وتندفعُ إلى رأسه لتولِّدَ دوياً يجعله على وشك أن يفقد رشده وأخذ ينسحبُ بتثاقلٍ من مبنى السفارة وراح يسير في الشارعِ من غير هدىً..

وبعد فترة وجيزة وجد نفسه مضطراً رغم عدم صفاء ذهنه إلى التفكير بالكيفية التي يجب عليه التصرف بموجبها وبخاصة وأنّه لا يعرف أحداً في المدينة معرفة حميمة تمكّنه من أن يلجأ إليه في تلك الورطة. وقد هداه تفكيره بأنّه لا مناصَ من اللجوء إلى الموظّف الذي سبق أن تعرّف إليه في السفارة بسبب أنه الوحيدُ من بلده الذي يعرفه هنا بعد أن استبعد كلياً اللجوء إلى الجهة الأجنبية التي أشرفت على برنامج زيارته باعتبار أنّه لم يكن لها علاقةٌ بالناحية المادية للزيارة التي تحمّلتها وزارته إذ انحصرت علاقتها بالناحية التنظيمية فقط..

ولدى تركيز تفكيره في هذا الحل وجد أنّه من الصعب عليه طلبُ مبلغ كبير من المال وبحدود ثلاثة آلاف "كرون" من ذلك الموظف، وهو المبلغ الذي قدر بأنه يلزمه لإتمام مدة الإيفاد كحد أدنى وارتأى أنه من الأفضل اختصار مدّة الزيارة بحذف الأسبوع الأخير منها وبذلك يصبحُ المبلغُ الذي يحتاجه ألفاً وخمسمائة "كرون" فقط. ثم فكر بأن هذا المبلغ كبيرٌ أيضاً وأنه يمكنه الاقتصاد من جهة والاختصار أكثر من مدة الزيارة وبخاصة وأن حضور المعرض ليس له علاقة مباشرة بالتدريب الذي يقوم فيه وارتأى مجدداً أن يكون السفر بأقرب وقت ممكن وحسبَ موعد الطائرة القادمة وفور وصوله إلى هذا الرأي أسرع خطاه باتجاه شركة الطيران الذي كان مكتبُها قريباً من المكان الذي يسير فيه وتصادف وجود رحلة إلى بلده مساءَ اليوم نفسه. وبدون كثير تفكيرٍ أخرجَ بطاقةَ الطائرة التي كانت الجهة التي أوفدته قد قطعتها له ذهاباً وإياباً وقام بالحجز بطائرة المساء لرحلة العودة. وأحسّ فور الانتهاء منه ببعض الهدوء والطمأنينة. وانطلق باتجاه السفارة بهدف رؤية ذلك الموظّف الذي يفترض أنّه حضر إلى عمله خلال تلك الفترة ليطلب منه إقراضه مبلغاً من المال لدفع النفقات الضرورية المترتبة عليه واللازمة له حتى مغادرة تلك البلاد. وكان خلال سيره بالشارع الجميل المحاط بصفّين من أشجار الزينة الرائعة المؤدي إليها، يحسب المبلغ الذي يحتاج إليه لتسديد نفقات الفندق وبقية المصاريف الكفيلة بتوصيله إلى الطائرة، حيث وجد أنّه يمكن تدبير أموره بمبلغ ثلاثمائة "كرون" وأنه من الأفضل أن يطلب أربعمائة أو خمسمائة خوفاً من حدوث مفاجآت غير محسوبة. ولكنّه كان يشعر بالخجل والحرج لدرجة قرر معها الاكتفاء بطلب الحدِّ الأدنى فقط..ً ولقد شعر بكثير من الارتباك لدى وصوله إلى الباب الخارجي لمبنى السفارة مما جعله يُحجم عن الدخول ويستمرُّ في السير متجاوزاً هذا المبنى إلى الاتجاه المعاكس للذي جاء منه، لمحاولة استجماع أعصابه ولملمة قواه وإبعاد شعور الاضطراب الذي سيطر عليه. لأنه ما كان يتصوّرُ أن تجبره الظروف أن يطلب من إنسان لا يعرفه معرفةً وثيقة إقراضه مبلغاً من المال مهما كانت المبررات

والأسباب.. وبينما هو على تلك الحالة من التشتت والاضطراب لاح له شيءٌ يلمع على بعد عدّة أمتار منه بقرب ساق إحدى الأشجار وتحت بعض الأوراق الكبيرة المتساقطة على الأرض. ولمّا وصل إلى جواره كانت مفاجأته أكبر من أن تصدّق عندما وجد بعض الأوراق المالية التي اختفى جزءٌ منها تحت أوراق الشجر التي تتلاعبُ بها الرياح الخفيفة التي كانت تهبُّ في ذلك الوقت. ولدى سرعة التقاطه لها كانت دهشته أبلغ من أن توصف حين وجدها خمس أوراقٍ جديدة كل منها من فئة "المائة كرون" وهي تزيد عن الحدِّ الأدنى الذي كان يحاول استجماع شجاعته ليتمكّن من طلب اقتراضها من ذلك الموظّف..

وساوره مباشرة شعورٌ فيّاضٌ بالراحة، وإحساسٌ متدفّقٌ بالسعادة، وكأنّ ثقلاً هائلاً قد أزيل مرّة واحدة عن كاهليه أو ألماً مبرحاً أزيح فجأةً بعد أن عشعش فترةً بين جنبيه. واستعاد رباطة جأشه بلمح البصر وأخذ يعود إلى وضعه الطبيعي بسرعة فائقة. فرأى أن يمرَّ أولاً على السفارة ليبلّغ ذلك الموظّف بنيّته على السفر ثم يتوجّه إلى المعرض لحضور افتتاحه ولإبلاغ المشرف على تنظيم رحلته بهذه النيّة..

ولدى مروره على ذلك الموظّف وإعلامه له بقراره وتلميحه بالسبب الذي دفعه لاتخاذه بعد اطلاعه على الرسالة التي استلمها من سكرتيرته قبل حضوره لم يلحظ لديه رغبةً جليّةً وأكيدةً في تقديم يد العون عن طيب خاطر فيما لو كان قد طلب ذلك منه. فقد ذكر له في أثناء الحديث أنّه يفترضُ في مثل هذه الحالات أن تقوم السفارة بدورها في هذا المجال، ولكنّ ذلك غيرُ وارد في ظلّ بداية دمج السفارتين معاً في تلك الفترة. وحمد ربّه كثيراً في أنّه لم يضطر إلى طلب ما كان ينوي طلبه منه. وتصوّر مقدار حرجه وحجم ألمه ونوع التصرُّف الذي كان يتوجّبُ عليه القيامُ به في حالة تقدّمه بالطلب ومجابهته بالاعتذار.. وأمّا المشرفُ على رحلته فقد أبلغه لدى اجتماعه به بالمعرض بعد انتهاء زيارته لذلك الموظّف في السفارة بأنّه مضطرٌ إلى العودة بعد تلقّيه لرسالة من بلده تشعرهُ بضرورة الحضور..

وفي أثناء إلقاء رأسه على مسند مقعد الطائرة المريح خلال تحليقها في رحلة العودة إلى وطنه، أخذ شريط زيارته لتلك البلاد بالتتابع في مخيّلته منذ اليوم الأول الذي حلّ فيه بها إلى اللحظة التي غادرها فيها. وأخذت الصور بالتتالي في ذاكرته حسب ما خلّفته فيها من رواسب وتركت عليها من آثار وتوقّف طويلاً أمامٍ تلك اللقية التي كانت تذروها الرياح تحت ظلّ شجرة رؤوم وبحماية أوراقٍ حانية في الشارع الذي تقع فيه سفارة بلادهِ صباح ذلك اليوم والتي حفظت له ماء وجهه وجنّبته مواقف صعبة وغير مستحبة..

وفجأة وهو بين السماء والأرض برزت أمام عينيه دون أن يدري صورة طفل في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية يدفعُ القروش الخمسة الوحيدة التي يملكها لامرأة تحتضن وليدها في يوم عاصف ماطر. ولمعت أمام ناظريه صورة أستاذه السابق بطلعته المهيبة وتقاطيع وجهه المريحة. وصخب في أذنيه صوته الهادر الرائق وتردد على مسامعه حديثه الهادئ الواثق بأن جزاء الصدقة ليس شرطاً أن يكون في اليوم نفسه أو الشهر ذاته أو السنة عينها وإنما قد يكون في أي وقت في المستقبل القريب أو البعيد. وأخذ عقله الباطن يربط بين القروش الخمسة والكرونات الخمسماية بشكل أو بآخر، ويردّدُ كلما روى هذه الحادثة كما يردد الآن كلمتين مختصرتين نستعملهما كلما أعجزنا المنطق عن إيجاد جواب مناسب لأحداث غامضة. لكونهما تعبّران عنَ الحيرةَ وضَعف البصيرة وتعكسان التشويش والتهويش وتحلّان الألغاز بإيجاز حينما تنصّان (من يدري..؟!..).




خذ بقايا خافقي..

شعر: جورج يوسف شدياق

كرّم اتحاد الكتاب العرب الأديب الكبير الأستاذ نعمان حرب،
فجمع كنوز هذا الحفل من شعر ونثر في كتاب قيّم أتحفني بنسخة منه،
مع تقديم رقيق مشفوع ببعض العتاب الأخوي النابع من قلب وفيّ مخلص..

أودعــتُ قلــبي - مُــذْ أطــلَ - كــتابك
ونشــقتُ مــن أثــنائه أطيــابَكْ
أيــن الشــبابُ..؟! ســألتُ رســمَكَ فانزوى
حــزناً.. فقــلتُ كفــر ســمعت جوابــكْ(١)
هــذي ســنينُ العمــر بعــد أن ارتــوتْ
مــن ذوبِ قلــبكَ حطّمــتْ أكوابــكَ
مــا أبقــتِ الأيــامُ قــبل رحيــلها؟!
غيــرُ الصــبا قــد هدّمــتْ أعصــابكْ
الضــادُ تشــهدُ كــمْ ســهرتَ لأجــلِها
والحــرفُ بــوّأكَ العُــلى فــأذابَك







أجهــدتَ قلــبكَ مُــذْ ســعيتَ وراءَنــا
فأضــعتَ بالسَــعْي الممــضِّ شــبابَكْ
تــلك اليــراعةُ قــد أنــارَتْ دربَــنا
لكــنْ كَــوَتْ بلهيــبها أهدابَــكْ
مُــذ لاحَ خــلف الأفــق طيــفٌ واعــدٌ
أشــرعتَ لــلأدبِ المهاجــرِ بــابكْ
أرســلتَ قلــبكَ إثــر كــلِّ مســافرٍ
لــم تَسْــلُ مــا طــال الــنوى أحــبابَكْ
أنــا عــاتبٌ.. أنــا عــاتبٌ.. أنــا عــاتبٌ
أحبــبتُ يــا رجــلَ الوفــاء عــتابكْ(٢)
يــا ناســكَ الجــبلِ الأشــمّ تحيــةً
خــذ عطــرَها وامســحْ بــه أتعــابكْ

*　　*　　*

يــا موئــلَ الأدبــاءِ أنــت ملاذُنــا
كــرّم قُــبَيْل رحيــلِهم كــتابَكْ(٣)
المــبديعنَ الحامــلين يــراعهمْ
رفعــوا عــلى السَــبْعِ الطــباقِ قــبابَكْ







حمـــلوا لـــواءَ الضـــادِ لا وهـــنٌ ولا

كـــللٌ، فنـــلتَ بســـعيهمْ آرابَـــك

*   *   *

نعمـــانُ مُـــذ جـــاورتَ أفـــلاكَ السُـــهى

دنـــتِ الـــنجومُ وجـــاورَتْ أعـــتابَكْ

يـــا صـــاحِ كـــرّمكَ الأُلى أحببـــتهمْ

أرضـــوا العُـــلى إذْ كـــرّموا آدابَـــكْ

عفـــواً إذا أنـــا لـــمْ أكـــنْ فـــي بحـــرِكمْ

لكـــن مخـــرتُ بأصـــغريَّ عـــبابَكْ

فابســـطْ يديـــكَ وخـــذ بقايـــا خـــافقي

قـــد نابـــني مـــن غربـــتي مـــا نـــابَكْ

إنـــي أزفُّ مـــن الفـــؤادِ تهانـــئي

فـــاملأْ مـــن الحـــبّ الـــندي جلـــبابَكْ

باقـــاتُ شـــعري قـــد تفيكـــمْ حقّكـــم

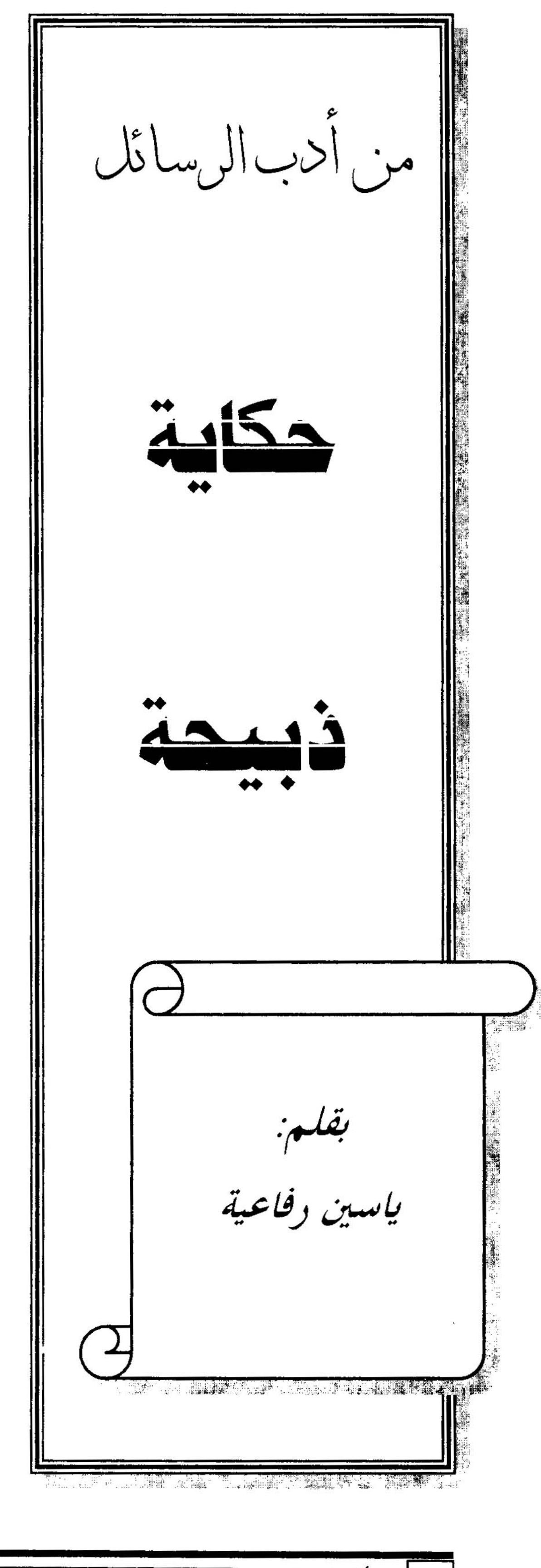
حـــاش أضـــيّع مـــا حييـــتُ ثوابَـــكْ

١- إشارة إلى رسمه على غلاف الكتاب

٢- إشارة إلى تقديمه الرقيق مع عتابه الأبوي "أنا عاتب.. أنا عاتب.. أنا عاتب"

٣- إشارة إلى اتحاد الكتاب العرب



-١-

* أكتب إليك الحرف المحترق، أكتب إليك دائماً بإحساس عارم بالصدق والإخلاص وعندما املأ الفراغ الأبيض بحروف حبي أشعر أنني ما أزال أستطيع الكتابة إليك..

الإحساس الذي أشعر به تجاهك، لا ينضب، إنه نبع لا يكف عن التدفق لأنه يمتلئ في أعماقه. ولن ينتهي... والشجون، ويوم كنا نلتقي كان العالم كله يغني، يضحك ملء فمه، وكان وجهك الطفولي الرائع نبع ضياء. عيناك مبتسمتان، وثغرك مقطوف من حدائق الفستق، وحديثك.. ما أحلى حديثك يا لؤلؤة.

ومرت أيام، أنا ما عرفت السعادة قبلك..لكنني عرفت الشقاء بعدك.

ومرت أيام أخرى ورحلت. بلا وداع..بلا كلمة.. بلا حنين.. ولم يبقى لي منك إلا الذكريات.. وما أقسى ذكريات السعادة عندما يجترها فكر الإنسان..؟

-٢-

* وتأتي الذكريات دائماً:

الأطفال الصغار، حبهم نقي كالبلور، لا يعرفون البغض والكراهية إلا عندما يكبرون. عندما تتفتح براعمهم على عالم قلق مختلف متناقض.

حبهم ليس كحب الكبار، إنه شيء عادي يمثل شخصيتهم.. ولكن الحب لدى الكبار هو صراع نفسي حاد.. وحب الإنسان الذي يدرك الحياة حق إدراكها... هو حب

عظيم، إنه منحة رائعة عظيمة لإنسان يستحق الحب.

فمرة.. قلت لي: حب الأطفال رائع يا صديقي، لا تشوبه شائبة، ولا حدود له.. ولا يقف البغض سدا أمام حبهم.

ذلك صحيح يا لؤلؤتي، لأنهم لا يعرفون الـ بغض والكراهية، إلا أن الحب الأعظم هو الذي يجتاز السدود ويقطع كل عائق.. لأنه حب قوي أقوى من الكراهية والبغض.

وكان حبي من هذا النوع الذي يجتاز كل السدود ليصل إليك، وعندما منحتك الحب، شعرت أنني أحب كل الناس وأن العالم كله رائع جميل يتدفق حنانا وضياء. كان حبي حقيقياً، تجاوز حدود البغض.

-٣-

* الجراح التي في قلبي، كانت تبكي بمرارة يوم رحلت يا لؤلؤة. كانت تمضغ كتل النار التي ألهبت في أعماقي ساعة رحيلك.ولقد ظللت أحمل حزني وأشرب ظلام الكون منذ افترقنا. رحلت الشمس عن العالم.

انطفأت النجوم، ذاب ثلج الجبال. أقحلت الحقول وجفت الينابيع. كل شيء رائع رحل برحيلك يا حلوة. وتركت كل حزن العالم في قلبي.

لم تعد إلى السماء شمسها، ولا نجومها المطفأة. وغادرها القمر حتى الأبد. رحلت يا لؤلؤة.. ولم يبق إلاّ الحزن.

-٤-

* قلبي يحملني دائماً عبر قرى وصحارى صغيرة، ليحط في واد أخضر حيث كنا نلتقي على جنباته أشجار متكاثفة تميل من عل بظلها المتماوج وتغمرني بالسكون والسلام.

وهناك حيث كنا نلتقي، ساقيتان تختبئان تحت قناطر من الطراوة، وترسم في انفراجها دائرة رقراقة، جلسنا على كتفها أقرأ لك أشعاري وحديقتي إليك.. وتمتزج هنيهة أمواجها وخريرها مع حديثنا الهامس كالنسيم. تلك أصبحت ذكريات يا لؤلؤة.

وأشعر بقوة عنيفة تجذبني للسفر إلى موطن تلك الذكريات.. فأقصد الرحيل وبي حنين كبير إلى ذلك الوادي الأخضر. حيث كنا نرتع ونمرح. أقصد الرحيل وحيدا، حتى أستمتع بالذكريات.. وما إن أصل. حتى أستنشق رائحتك العطرة.. فما زالت تعبق في الوادي وتزيده بهاء وجمالا.وأجلس إلى الساقية وحيدا، وأرقب المياه التي تبتعد عن منبعها.. تتيه مجهولة.. وهكذا أصبحت مثلها.. يتدفق ينبوع أيامي. سائراً دون غاية.. ودون اسم.. ودون لون.. ودون عودة.والفرق بيني وبينها: أنها مياه صافية.. ونفسي مضطربة لا تعكس حتى أضواء يوم جميل. وأبقى طول النهار على ضفاف تلك الساقية أمام عذوبة مياهها، وكالطفل ينام على غناء موحد النغم.

تمنيت لو أقف عن المسير، لو أنتهي وحيداً في الطبيعة، لا أسمع سوى رقرقة المياه العذبة ولا أرى سوى زرقة السماء الصافية.

ولا أذكر إلا حبك الذي غمر إحساسي.. فأحيا لك.. وأموت لك..

-٥-

* لي رغبة: لو أستطيع النسيان، لو أستطيع أن أسلو الماضي، لأنني أحب أن أرى فؤادي في راحة ونفسي في هدوء.

لي رغبة أن يضمحل ضجيج العالم البعيد كما تخنق المسافة صوتاً بعيداً قاده الهواء إلى الأذن المرتابة.

لي رغبة أن أمسح عن قلبي حزنه وأداوي جراحه واسكب فيه بعض الفرح فهو بشوق عارم إلى الفرح.

لي رغبة أن أنسى كل شيء.. وينعدم في الإحساس وأفقد بصيرة الروح.. فأعيش على الهامش.

لي رغبة لو أصاب بصدمة في رأسي تفقدني الذاكرة.. فأصبح بلا أسم.. بلا حب، بلا ماض.. بلا حاضر.. بلا مستقبل.

ولكن.. من أين؟ وكيف.. أستطيع تحقيق رغباتي.. لقد فرض عليَّ الشقاء.. فيا مرحباً بالحزن والشقاء.

-٦-

* أتذكرين - يا لؤلؤة - لقاءنا الأخير..

لقد تمنيت أن يقف كل شيء.. في الكون فجأة.. ولا نتحرك بعدها أبداً.

ونظل هكذا إلى الأبد ساكنين.

وأترك رأسي متوسداً كتفك الأيسر، لا نتحرك.. ونضع الأختام على شفاهنا. ونغمض عيوننا ولا نفتحها أبداً، حتى لا أرى قفز ابتساماتك.. حتى لا أحرك رأسي فأشعر بثقل الملل يتسرب إلى أهدابك الساحرة. حتى لا أفتح عيني لأقرأ في عينيك نهاية حبنا..

كنت أتمنى أن يقف الكون عن الحركة.. وأن يقف العالم عن الدوران.. وأن نبقى في الظلام.. وأن نسى أننا أحياء.. وأن ننسى أن لنا غداً..

ولكن..

ولكن الشمس أشرقت.. ووصلنا مدينة الموت.. ورحلت.. وعاد الحزن يغمر كل مكان..

-٧-

* صورتك يا لؤلؤة.. ستظل في إحساسي أبداً.. إنها منذ افترقنا تكبر لحظة بعد لحظة.. حتى أصبحت أراها في كل بسمة.. في كل نسمة.. وراء كل غيمة وبجانب كل نجمة.

أي وجه جميل يمر بي.. أشعر أن فيه شيئاً منك.. وأن جمالك نبع لكل جمال في العالم..

أنت النبع الجميل.. ومنك.. تتدفق كل العيون الجميلة.. الشمس تشرق من عينيك.. والقمر سرق ضوءه من وجنتيك.. والنجوم تتلألأ كلها كأنها تاج مجموع على رأسك..

رحلت يا لؤلؤة

لكنني أراك في كل شيء جميل.. وأحسك في كل لحن حلو.. وأتلمسك في كل حنان وصدق وإخلاص..

لتكن السعادة رفيقتك حتى الأبد.. ولتكن ذكرياتك رفيقتي حتى الأبد..

وداعاً..




أجمل من عينيك..

شعر: سعيد عقل

أجمـــل مــــن عيـــنيك حـــبي لعيـــنيكِ
فـــإن غـــنيت غـــنى الوجـــود
فـــي نجمـــنا أنـــت، وفـــي مـــدّعى
اشـــواقنا، أم فـــي كـــذاب الوعـــود؟
كـــنت بـــبالي فاشـــتتمت الشـــذا
فيـــه، تـــرى كـــنت بـــبال الـــورود؟
ســـكناك فـــي الظـــن، وهـــذي الـــدنى
تـــلهف بـــاك، وقـــلبٌ حســـود
وتدعيـــــك الأرض دعـــــوى صـــدٍّ
إلى الهـــوى، ضـــمَّ الســـراب الكـــؤود
لأجـــلك اخضـــرت ربى جنـــتي
ومـــاد يســـتويك غصـــن ميـــود
كوّنـــت مـــن تـــوق إلى الحســـن - لا
مـــنك - ومـــن مـــد يـــد صـــوب جـــود
هـــل تعـــرف الأوتـــار فـــي أوجهـــا
فضـــل المشـــوقين إلى صـــوت عـــود؟
آه اخـــلعي مـــا أنـــت مـــن خاطـــر
أتعـــبت مـــن شـــوق إليـــك الخـــلود
كونـــي يكـــن لـــلعمر معـــنى الطـــلا
ولـــلثواني فـــوح مســـك وعـــود
موعدنـــا هـــنيهة أفلـــتت
فـــي الدهـــر، تخـــتط وتمحـــو الحـــدود
والكـــون أشـــهى مـــا تـــراءى لـــنا
أرجوحـــةٌ طـــارت بـــنا لا تعـــود
أجمـــل مـــا يؤثَـــر عـــن أرضـــنا
أوهامهـــا أنـــك زرت الوجـــود






الشاعر عبد اللطيف محرز، كاليم المترامي الأبعاد، عصامي أوجد ذاته بذاته، بالرغم من الليالي الحالكة التي أثبطت عزائم الآخرين، لم يستسلم لها، بل عصف بها وتغلب عليها، من خلال مسافة السبق التي حددها، فكانت نتائج يومياته مثمرة، من خلال فرضياته الملجومة بضوابط المنطق، وأهدافه في مراميها من خلال سهامه، المعقلنة بالأسرار المخزونة في لا شعوره.

يتصف الشاعر بمساحة واسعة، من سعة الصدر، وملكته العقلية استوعبت طيوف الأجناس الناطقة وعلى مدار فصولها الأربعة. ملك ناصية الشعر والنقد والمذاهب المثالية والمادية، وإن حدث في التاريخ، فلا تخونه ذاكرته، لامس الحياة حلوها ومرها، فاستنبط منها الحكم والعبر، وازن بين الحياة والموت، وبين الخيال والواقع، لم يطغ عنده الخيال على الواقع، بل لجمه، كي لا تخرج مخيلته عن الواقع، لذلك تراه متربعاً عليه وعلى الجهات الست، بمعادلة فرض من خلالها هيبته على القمم والسفوح والوديان.

مقدماته الملجومة بضوابط العقل، عكست مضمونه، أي معناه، الذي لامس مواقع عديدة، ومفاصل نهل منها كل من كان يحتاج إلى عون مادي ومعنوي، لمواجهة ظروف الحياة ومنغصاتها.

الأستاذ عبد اللطيف محرز موهبته الأدبية لم تستأذنه بالخروج إلى حيز الوجود، بالرغم من زحمة الهموم التي في عالمه الداخلي والخارجي، وزحمة المواقع التي ألحقوها به، فهو المدرب والمدرس والمدير والنقيب والسياسي وممثل الشعب ورائد الأدب، عبر رحلته التي أمضاها في موقع هنا وآخر

هناك، وبالرغم من خصوصية ظروفه تفجرت مواهبه، التي قلنا أنها لم تستأذنه، لأن المواهب كالمياه المضفوطة والمخنوقة في جوف الأرض عندما تضيق بها تتفجر فوقها دون جواز سفر، وغزارة إنتاجه تدل على الموهبة التي فطر عليها، وبالرغم من ابتسامة الحياة وثغرها الضاحك، عبس بها ولجم مبناه ومبناها بمعناه الذي روض كل نفس أمارة بالسوء.

ترك جانباً نتف لحياة، ولم تشغل وقته، بل استجاب بكل أحاسيسه، إلى شعوره ولا شعوره، كي يترجم هواجسه التي تنبض في عالمه الداخلي، التعبير عما يجول في النفس من صور الحياة، فاستطاع وعلى حساب راحته، بلورة بساتين عديدة، ستبقى على مدى الحياة مناهل، يستمد منها الآخر، ما يحتاجه من غذاء للروح والهواجس الأخرى التي ليس لها وتد.

إن دنوت منه، تشعر بهيبة اليم المترامي الأبعاد، من خلال المعنى الذي تدلت طيوفه والتي لامست الظواهر التي ابتعد عنها الآخر. ذوبان ثلجه في الفصول الحارة ينعش به جذور الصنوبر والحور والسنديان ويغني عناء البحث عن مصدر الإنعاش.

أخرج إلى حيز الوجود، واحات خضراء، لم يهجن فيها، بل أصر على الأصالة والتراث، وعلى الظواهر المتحركة التي كانت والتي يجب أن تستمر معانيها، كالروح في جسم كل عمل إبداعي في هذا العصر، الذي تقصف به العواصف من كل حدب وصوب، كي تستقيم أعمالنا من خلال تقديرنا وتمسكنا لما كان من ظواهر إيجابية في ديواننا الماضي.

ركز على التراث للتمسك به، لأنه معنىً على مبنى واحة الضاد، وهو الهوية العربية، والتي إن فقدناها فقدنا مقومات الوجود، لأن الصهيونية تحاول انتزاع هذا المعنى الذي نتمسك به، لأنه الأخطر على سياستها التهويدية.

أغنى المكتبة العربية بمؤلفاته التي بلسم بها الجروح النازفة هنا وهناك، ووضع بين يدي القارئ موضوعات سهلة الرشف من خلال الأسلوب السلس، الذي لا يجهد به القارئ عناء البحث عن معاني مفرداته. جمله لا تحتاج إلى مجهر البصيرة والبحث عن مراميه، في دهاليز ملتوية ضيقة، لا ترى النور إلا من ثقوب ضيقة.

الأستاذ عبد اللطيف محرز سباح مخضرم، ولو لم يكن كذلك، لما ترجل السباحة في بحور سبر أغوارها يحتاج إلى غطاس ماهر لا يخاف العواصف الهوجاء والأمواج التي يقذفها بحر هنا وآخر هناك،لأن مصدر بريق هذه الأمواج يدركه، من خلال ما يوشح به سفر الحياة من طيوف يقذف بها من مدفون عالمه الداخلي، لصنع مبان من اللوحات الإبداعية، تعكس ما يجب أن يكون.

للشاعر خمسة دواوين شعر، وثلاثة مؤلفات في الدراسة وهي العصفور الأخضر، وأناشيد البحر، وأناشيد الحق في رحاب علي، وأناشيد الحياة، وشجرات الدماء-شعر- والإنسان في ظل القرآن، والشاعر نديم محمد، والشاعران بدوي الجبل والمتنبي-دراسة-

وتأتي أهمية مؤلفاته في كشف الحجاب عن عباقرة في التاريخ كالشاعر نديم محمد، وأن يقدم دراسة للقارئ، يستطيع من

خلالهـا تكوين صورة واضحة عنه، فالأسلوب الـذي اتبعه الأستاذ عبد اللطيف في الدراسة، تجعـل القارئ في لهفة متصاعدة، للانتقال من معلومة إلى أخرى، فالتسلسل الزمني للقصائد، يشغف بها القارئ، وتشكل عنده إرادة الفضول فـي القياس والمقارنة بين لوحات الشاعر في ربيعـه، والآخر في خريفه، وهذه الطريقة من انجـح الطرق في إدخال المعرفة إلى مستودع الذاكـرة، لأن ما نقرأه بفعل لا إرادي هو الذي نحتفظ به.

قدم المؤلف الشاعر نديم محمد للقارئ بأسـلوب أوضح فيه عبقرية هذا الشاعر الذي لـم نـدرك قامـته السامقة في حياته، وكشف المؤلـف الحجاب عن كنزه الأدبي المتنوع في شـتى مجالات الحياة التي لامسها الشاعر نديم محمـد. وعـند الانـتقال إلى بستان آخر من بساتين الشاعر عبد اللطيف محرز تحت عنوان (الشـاعران بـدوي الجـبل والمتنبي) تحبس الأنفاس وأنت في رهبة واد عميق، تسير بين جبـلين، تشـحظ بعينيك للأفق، يميناً ويساراً وأنـت تتطـلع بخـوف إلى القمتين اللتين لا تستطيع بلوغهما، لشدة الارتفاع وهيبة المعنى الصـاعد من الجبلين. فالشاعران بدوي الجبل والمتنـبي، لا يستطيع الوقوف بينهما إلا جبل آخر، لديه مفاتيح وشيفرة سرهما.

لقـد وقف الشاعر عبد اللطيف محرز وهـو مـن المقام ما يخوله للربت بيديه على كتفي الجبلين، كي يشقل هذا وذاك، وأن يضع غـلال بيدرهمـا في كفيه، وهو رابط الجأش، يـتأبط الثقـلين الـلذين شغلا الدنيا، فاستطاع الشـاعر بأسـلوبه المعهـود، أن يقدم للقارئ بطـريقة جذابة الشاعر بدوي الجبل والشاعر المتنـبي، بأوجـه التشـابه بينهما، من خلال تسلسـل صـروف الزمن ونوائبه التي وشمت الاثنين، منطلقاً بذلك من طفولة كليهما صعوداً حتى نهاية حياتهما المتشابهة.

لقـد قـدم الشاعر عبد اللطيف محرز للقارئ هذه الدراسة، وكأنها طبق من ورد، لا يـرتوي القارئ من شحذ أنفاسه، من رياحين أزاهيـرها المنعشة، ووفر له الجهد من خلال هذه الدراسة كي يكون فكرة شاملة عن اللذين شـغلا الناس قديماً وحديثاً ومهما كانت درجة القارئ من الإلمام والمعرفة.

الشـاعر عبد اللطيف محرز قامة من القامات السامقة التي خرجت من قرية الناعسة الـتي أناخها الخالق على رابية تغازل الوديان الـتي تـتعمد بمياه الينابيع العذبة والتي كانت محرضـاً لينبوعه الثر الذي لا ينضب. صارع الشـاعر صروف الزمن ونوائبه، وشق طريقه فـي معـترك اختلطت فيه الأوراق، فاستطاع بملكـته أن يعـبر عـلى زورقه الذي لم يبخل بإغاثة الملهوف مادياً ومعنوياً.

لجـم مبـناه بمعـناه، كي يوازن بين الحياة الدنيا والآخرة، من خلال ما قدمه للوطن والمواطـن فـي سفر يومياته، التي يجب أن تكون، قدوة ومثلاً أعلى لكل من أحب أن يكون في موقع ما تحت الشمس.

فـي هـذه الدراسة العجولة استميح المؤلـف عـذراً لأنـني لست من المقام، لأن الغـرف في البحر يحتاج إلى ربان ماهر، لكن الواجـب فرض عليّ أن أعبر عن شعوري ولا شـعوري، وعن الصور المعتقة التي اختزنها في عالمي الداخلي، عن احترامي وتقديري له، لمـا قدمه للوطن والمواطن وعالم الثقافة من مؤلفات ومواقف بلسم فيها الجراح النازفة هنا وهـناك، جدير بكل مثقف أن يحتضن مؤلفاته لمـا لهـا مـن أهمية في عالم العلم والمعرفة والأدب.




شهيدُ الفجر..

شعر: نائلة الإمام

ها هو ذا يخلَعُ ثوبَ الجسدْ
يترجَّلُ عن دمهِ المطلولْ
صاعداً نحو روحِ الله
* * *
يعبرُ شاشةَ الرؤيهْ
يدخُلُ رَسمَهُ في سِفْرِ الأبدْ
حيثُ ترنو الشهودْ
تسقُطُ الحُجُبُ
وينْحَسِرُ الزَبدْ
* * *
هوذا دَمُهُ يتناسَلُ
في رَحِمِ الأرضْ
ينضَحُ بالشررْ
هل كان نبياً تخفَّى
في زِيِّ صدِّيقهِ؟!!
أَوَ كان عُمَرْ؟!!
* * *
يا روحاً ناءَ بها الهيكلْ
وصفاءً يطفو على مِرْجَلْ
هل كان لِكُرسيِّكَ رَمزٌ
لِكَراسٍ تُقْعي
ولا تخجلْ؟!!
مُذْهَبَةٌ في جسمِ عُجولٍ
ويُسيرُها حَبرٌ أختَلْ
لشيوخٍ باعتْ عِمَّتَها
بترابِ الدرهمِ والشَيكلْ..
* * *
ها أنتَ على البُعدِ تراها
من قمَّةِ نَسْر
من شوقِ النهرِ إلى

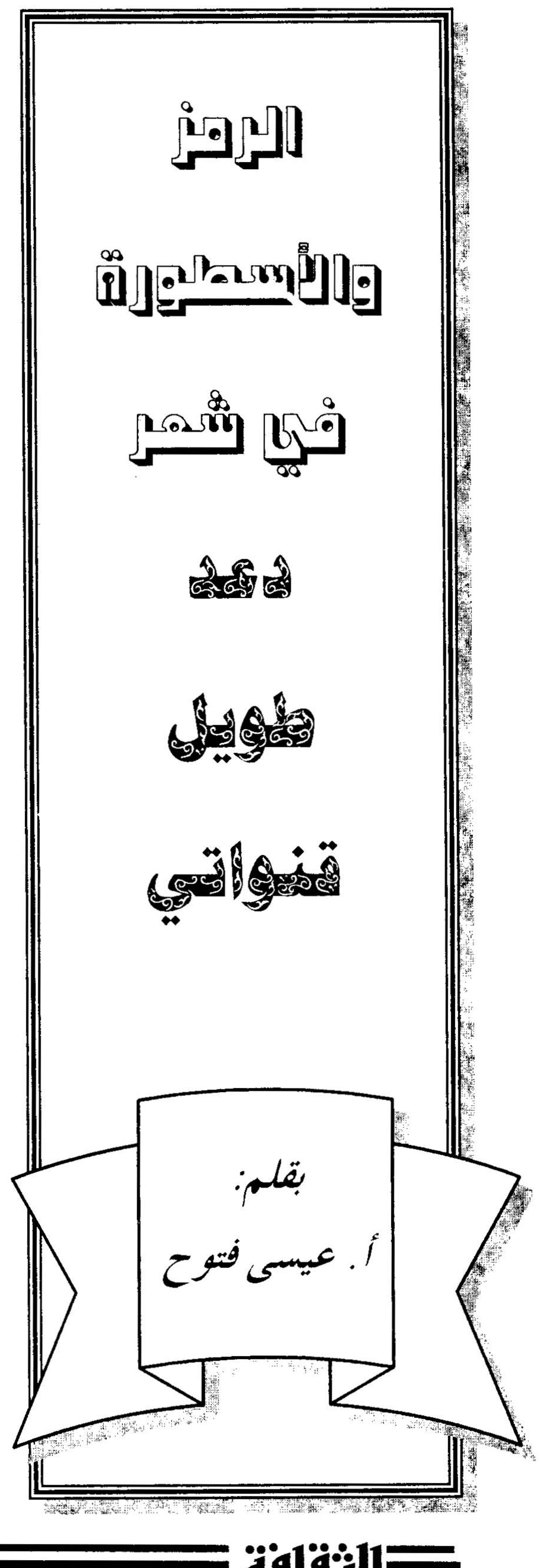






أحضانِ البحرْ
وتراها ديدانُ السفحِ
من كُوَّةِ جُحْرْ
ويصيحُ مقاولُ إسمنتٍ
هي صفقةُ عُمرْ
كم يغلو مهرٌ تدفعُهُ
من قبضِ الجمرْ
* * *
أنْسَنْتَ الموتَ ألمْ تَرَهُ؟!!
يأتينا طوعاً نأتيهِ
ونواعِدُهُ ونُلاقيهِ
نحزمُهُ بنياطِ القلبِ
ونشقُّ الصدرَ ونُخفيهِ
نَعْصُبُهُ بالأملِ الأخضرْ
وبصرخةِ اللهُ الأكبرْ
بقناعِ الليلِ نُعمِّيهِ
* * *
نطلُعُ من عينِ بنادقِهمْ
نسري من تحتِ أظافرِهمْ
وجدائلِ مأفونٍ شرسٍ
من كأسِ جنونِهِ نَسْقيهِ
ونُقيمُ على عهدِ الموتِ
نتشظَّى حينَ نُشَظِّيهِ
* * *
ها إسمُكَ في لُثغَةِ طفلٍ
قد أغفى على خدِّ القمرِ
يرويكَ بقصَّةِ جدَّتِهِ
يرسُمكَ على وجهِ الدفترْ
يغمُرُكَ بطاقاتِ الزهرِ
* * *
في نشوةِ فلاحٍ هَرِمٍ
قد فاضَ جَنى بيَّارَتِهِ
ويغنِّي شوقَكَ محزوناً
لترابِ الأرضِ ونكهتِهِ
فيَئِنُّ بجرحِكَ مِزمارٌ
ويَشُبُّ لظىً في دبْكَتِهِ
* * *
ويحِنُّ الدمعُ بمُقلتِهِ
من زَمَنٍ قد ولَّى أغبرْ
إذ تخطُرُ أشباحُ العسكرْ
يطفو كُرْسيُّكَ في بحرٍ
من دمِّ الشفَقِ ودمعَتِهِ



دعد طويل قنواتي شاعرة مبدعة، ومترجمة قديرة، وأستاذة جامعية، ولها حضور واسع في الأوساط الأدبية والفكرية في سورية والوطن العربي.

ولدت عام ١٩٤٤ في حمص لوالدين مثقفين هما الدكتور بولس الطويل والسيدة أولغا فاخوري اللبنانية الأصل. درست في مدارس حمص حتى نهاية المرحلة الثانوية، وانتسبت بعد ذلك إلى قسم اللغة الإنكليزية في كلية الآداب بجامعة دمشق، وتخرجت عام ١٩٦٨، ثم التحقت بالدراسات العليا في قسم اللغة الإنكليزية بالجامعة الأمريكية في بيروت، وبعد تخرجها درّست اللغة الإنكليزية والترجمة والشعر الحديث في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة "البعث" في حمص بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٩٥.

تزوجت عام ١٩٦٢ من المهندس جبران قنواتي وأنجبت منه أربعة أولاد: صبيين وابنتين.

شاركت في العديد من المهرجانات والندوات الشعرية، ونشرت الكثير من قصائدها الحديثة في مجلات وصحف سورية ولبنان والأردن والولايات المتحدة الأمريكية، وألقت محاضرات عن المرأة والتربية والنقد الأدبي والشعر الإنكليزي الحديث، وأجريت معها لقاءات صحفية في الكفاح العربي والأنوار (لبنان) والبعث والثقافة الأسبوعية وجريدة حمص (سورية) والسياسة (الكويت) وغيرها.. ومقابلات تلفزيونية في سورية ولبنان وقبرص والولايات المتحدة والخليج العربي.

آثارها الأدبية

١- حزمة ضوء (شعر) وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٨.
٢- حكايات شهرزاد الحمصية (شعر) وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩٩.
٣- مزامير حب متوسطي (شعر مترجم) للدكتور وليد سلامة – طرابلس (لبنان) ١٩٩٦.

دراسة شعرها

تندرج موضوعات شعرها من مناجاة أطفالها وأحفادها، إلى مناقشة قضايا الخير والشر، كما في قصيدة (الزجاج المعتّم) التي تقول فيها:

لماذا لا يكون للخير هالة
وللشر أذرع سوداء؟
ألهذا الأمر ناموس أيضاً لا يتغير؟
حتى عندك لا توجد ثورة؟

وإلى حيرة الإنسان أمام عشوائية الموت، وعجزه عن حل لغزه المبهم، واستغلاق المستقبل كما في قصيدتها (خيّام) وهروب الزمن، وخضوع المرء للنواميس العليا، كما في قصيدتها (أراه تكسّر موجك):

أراه تكسّر موجك فوق صخور الشواطي
وباتت ذراه تُثار رذاذ، وكوم زبد
أراها النواميس طالتك في معتلاك
وطالت سلالمك كي تمسّك أنى علوت

مروراً بالقضايا المحلية والكونية في الوقت نفسه، كما في قصيدة (حكايات شهرزاد الحمصية) التي تناقش قضية التلوث في حمص.. إضافة إلى الهم الوطني والقومي. كما في قصيدة (زرقاء اليمامة) التي تتحدث فيها عن افتقاد الازدهار والمنعة، أو قصيدة (جمال الدرة) التي عبرت فيها عن الشعور العام الجماعي في بدء الانتفاضة الفلسطينية.

وتتغنى في شعرها بالطفولة، وتعدها مجد الكون وكنزه الثمين، كما في قصيدته (مثل كتلة الذهب الخام) التي تقول فيها:

امسكوها
امسكوها الطفولة الهاربة
المنسربة من بين الأصابع
حركة، لوناً، ضوءاً، عطراً، ندىً
اخزنوها، كما تُخزن الجواهر والكنوز..
اكنزوها في القلب بين الأجفان..

كما تقطع العهود لكي تحمي الطفولة من الحزن والكدر، كقولها في قصيدتها (داخل بؤبؤ عينيها):

داخل بؤبؤ عينيها
رأيت صورتي أضحك
أنا من أجلها أرتدي أحلى أثوابي
وأجمل ألواني ألبس
أرتدي الرقة والفرح والقوة والرضى
حتى أكون داخل عينيها
صورة تضحك..

وترى في الحب اتحاد أرواح ستلتحق – حين تفارق الجسد – بمدار الحب الأكبر والأعلى، كقولها في قصيدة (وأنا أدور في الفسحة المضيئة):

وقد ينحدر جسدي وجسدك
وأجساد كثيرة
على جوانب هذا الكوكب
ويبقى ذلك الاندفاع
يدور في فلك أوسع
وينتمي إلى مدار أكبر

وقد يستقر في النهاية
في سماء أعلى
حينما ينتهي كل الزمن.

وترى فيه اتحاد أنفس أمام ما هو خارج عن الذات، وأمام روعة الفن وسموه، كما في قصيدة (وأعرف أن الحجر) التي تقول فيها:

وأعرف أن الحجر
إذا لم ترفرف حواليه روح الأحبة
أعرف أن النقوش وأن الصور
إذا لم تبث بها الروح شهقات إعجابنا المشترك
ولم تتوحد بنار التعجب أرواحنا
وصرنا ندور بذات الفلك
تظل جماداً، وتبدأ تهاوى
كأن هي محض حجر، ومحض انثيال صور

وترى فيه أيضاً تماهياً عاطفياً شاملاً كقولها في قصيدة (أنا لا أحبك):

أنا لا أحبك قدر نفسي
نفسي إذا اعتكرت يظل السقفُ فوق الدار
والحيطان فوق الأرض
والأرض تعاند، لا تميد..

ويتجاذب نفسها تياران أساسيان: الأول التوق إلى المعرفة، والثاني حب الأولاد، والتطلع إلى تأسيس أسرة مثالية، وتربية أولاد سعداء، وقد قطعت عهداً على نفسها بأن تجعل ابنتها في نقاء الورود، وأغنيات الربيع الندي:

بحقكِ يا ابنتي الغالية
بحق نداءاتك الصافية
بحق الصباح، بحق المساء
بحق الزهور، بحق الضياء
سأجعلك في نقاء الورود
وفي أغنيات الربيع الندي

وفي قصيدة (خيّام) من ديوان (حكايات شهرزاد الحمصية) تفسح المجال لمناقشة هذين التيارين، فهي لا تعبأ بموت الجسد، إذا تسنى لها أن تعانق المعرفة وتتصل بالمطلق:

الروحُ إذا ما شق لباس الطين
وانضم إلى فلك الأنوار
هل يبقى يعبأ يا خيّام بناموس الفخار؟

وتعتمد الشاعرة دعد طويل على الصور في التعبير عما تبغيه، وإيصاله مشحوناً بالموسيقى والإيقاع المناسبين، ففي (حكاية شهرزاد) تبدأ القصيدة ببحر الرجز ثم تنتقل إلى الخبب أو المتدارك حين تبدأ برواية متاعب مدينتها حمص مع التلوث.. وهي تنوّع في البحور تبعاً للصوت الذي يتكلم، لا سيما وأنها تعتمد أسلوب الأصوات المتعددة في قصائدها، لكي تحيط بكل الجوانب النفسية والانفعالية وكل المؤثرات التي تبرز إلى سطح الوعي حين كتابة القصيدة.

كما تعتمد على المشاهد أيضاً، وتفسح لها المجال لتتحاور مع بعضها، وتبرز الصراع الداخلي، أو النمو والتدرج في بلورة الموقف النهائي.. ففي قصيدة (أطلس) تعبر عن مواقفها الداخلية المتباينة في جملة من الصور، والخيبة والشعور بالعجز يلبسان صورة أعمدة تدمر المنهارة التي تشكل صورة معادلة للأحلام المنهارة، والتبلد الذي تلجأ إليه حماية لنفسها من الألم، يأخذ شكل الأطلس الذي طلب أن يتحوّل إلى حجر، تخلصاً من ثقل حمله الذي هو المعادل الموضوعي للآمال الكبيرة، وما تتطلبه من عناء في سبيل تحقيقها، ورفض النفس التنازل عن أحلامها

الكبيرة، يعبر عنه استمرار افتتانها بجمال نقوش ونحت أعمدة تدمر.

من هذه المواقف الداخلية التي يعبّر كل منها عن نفسه بأعلى صوته، ينبع الموقف الأخير الذي يأخذ شكل صوت آمر حاسم:

اعلم أنه لا يكون لك في هذا العالم مكان
حتى يُنزع من بين أضلاعك
قلبُك الحاني، ويُسلخ غشاؤه
ويعلقَ على رؤوس الأسنة..

والموقف الأخير هو قبول العالم الذي تكتشف الشاعرة أنه بعيد عن فردوسها المتصوّر، وأن الأحلام الكبيرة التي تعبر عنها بصورة (اعتلاء عرش) تستحق العناء الذي يبذل من أجل تحقيقها.. وهكذا تتوالى المشاهد بصورها المتدفقة رواية القصة الداخلية من المسيرة إلى النضوج والواقعية.

وتعتمد أكثر ما تعتمد على استخدام الرمز والأسطورة في التعبير عن ذاتها من أجل إجراء إسقاطات على واقعها الشخصي والتاريخي العام. وهي لا تكتفي بالمعروف من الأساطير، بل تبتكر أساطيرها الخاصة، كما في (زرقاء اليمامة) حيث تصور أهل اليمامة في طقوس يلقون فيها حليّهم وذهبهم وفضتهم بين ذراعي إله الريح، حتى لا يبدأ السفر، وتثور الرمال، ويتعكر مجال الرؤية أمام الزرقاء.. ثم تصور الاحتفال الذي يقومون به بعد انتصارهم على أعدائهم بفضل الزرقاء:

طوباك خذيني يا أرض الزرقاء
حجراً في برجك
أثلاً شهدت أشواكُه
يوماً في عرسك
أهزوجة نصر نشوان
يتناقلها الركبان
وتراً لربابة
أشجاه القوس الملحاح أضاع صوابه

وتبتكر تفاصيل أسطورة ثانية في قصيدة (تدمرية) حين تصور إلهة الازدهار ترقص فوق أقواس طريق القوافل، وإلهة المنعة تنقل في الليل، بعد نوم الجميع، أعمدة الساحات لتصفّها سوراً منيعاً حول تدمر، يرد عنها الغدر، ثم ترجعها مع الفجر إلى الساحات متظاهرة بالبراءة.

وتتداخل أساطير ورموز كثيرة في نسيج الشعر العربي والإغريقي، وكذلك التاريخ والشخصيات التراثية، والذاكرة الشعبية، لتشترك كلها في صياغة عالم الشاعرة، فنجد هنالك بنيلوبي، وأطلس، وتدمر، وزنوبيا، والخيام، وشهرزاد، والمعتصم، وعمورية، وبعضاً من شخصيات وحوادث ألف ليلة وليلة، وبعضاً من ألعاب الأطفال وأناشيدهم.. ففي قصيدة (لوبان) مثلاً نجد من الأساطير الإغريقية طقوس تقدمة الذبائح والنبيذ، ومن أساطير المنطقة نجد مولوك، وبابل، وفُلك نوح وغيرها، ومن ألعاب الأطفال نجد إطلاق الطائرات الورقية، ومن الأدب نجد تفاصيل المسرح العبثي والكلاسيكي والواقعي، تتضافر كلها في انسجام ودون افتعال.. وفي قصيدة (الحنين إلى زرقاء اليمامة) نجد المخزون الأدبي في استعمالها المقطع المتكرر في مسرحية (يا طالع الشجرة) لتوفيق الحكيم، إضافة إلى أهازيج الأطفال التي تتحدث عن صندوق بلا مفتاح، توظفها مع شخصية الزرقاء التراثية، في تعبير عميق وقوي عن الضياع والخيبة في مشهد تقول فيه:

هذا الزمن هذاء مطبق
والمشهد فصل مأخوذ

في عرس من عصفوريه

وتعتمد الشاعرة على الإيجاز في تصوير مواقفها الداخلية، ففي قصيدة (عمورية) من (حكايات شهرزاد) تختصر فردوس الفرد أو المواطن في هذه الأبيات:

لم أعرف فردوساً أرضياً
أعظم من حين انشق رتاجُ الكون
وارتجّت أحشاء الدنيا
لما هتفتْ: "وا معتصماه"!
امرأة من عمورية

وللسيدة دعد صورها الخاصة مثل (السنة السمكية) في قصيدة (لوبان) و (السلك الشائك داخل لوح الصابون) و (البرغش الآدمي) و (قفاز السخرية).. ومحاولات جديدة للتعبير كقولها في قصيدة (لوبان) أيضاً:

يا سيّدُ لو تجعلني رقم التسعة في ميزان
الضرب
لأُسقط أغفل
لما تُجمع أرقامُ الحسرةْ

وتعتمد في قصيدتها (زهر على قبر والدي) من ديوانها (حكايات شهرزاد) على الحوار، حيث يدور حوار بينها وبين روح والدها تقول فيه:

تبقين في صُغرى الدوائر، ما كبرتِ
صغرى؟ وهل كبرى؟
وهل إذا وسعت دائرتي من حيرتي أبرا؟
هل عَدَن في الأفق الأعلى والدورة الأسمى؟
برءٌ وسقام
بل غصصٌ حَيْرى وأدمعٌ حرّى..

وتعتمد كذلك على أسلوب (المونولوج الدرامي) وبخاصة في قصائدها الطويلة مثل (خيّام) و (زرقاء اليمامة) و (حنين محتجز) و (تدمرية).

أما مفرداتها فهي معاصرة، إلاّ حين توظف اللغة الشعرية القديمة من أجل خلق تأثير معين، ومن هذه المفردات التي تتكرر كلمة (النُّور) بجميع مشتقاتها من ضياء، وألق، ووهج، وبرق، وصاعقة.. أو ما يقتضي وجودُه النور مثل قوس قزح، وشفافية، وصحو.. كما تتردد كلمات البناء والعمارة مثل الحجارة والخشب والإسمنت والحديد، والأعمدة والمداميك والدعامات والسقف والجدران والأرض.. كل هذا لتعبر عن نزعتين أصيلتين دائمتي الاشتعال في نفسها وهما: التوق إلى النور، أي المعرفة والحق، والتوق إلى البناء، أي إلى الجدوى، كما في قصيدتها (حنين محتجز) التي تقول فيها:

أشتهي أن أُصَبّ
لَبنةً في جدار يرتفع
جناحاً في كتف
يبتغي أن يُحلّق
عظماً في قدم
يَهُمُّ أن ينطلق

وإذا لم يتسنَّ لها هذا فقد تبقي شهوة النفس هذه حبيسة في داخلها "حزناً مطموراً مثل جنين محتجز".

بقي أن نقول إن شعر دعد طويل قنواتي ليس إلاّ مرآة عكست تساؤلاتها الفلسفية، ونظراتها التأملية في الحياة والموت، ومصير الإنسان بعد الموت وعجزه عن حل لغزه المبهم والمحير، وضعفه أمام القدر، كما عكست إحساسها بالأمومة وشطحاتها الصوفية، وصبوات نفسها التواقة إلى المطلق.




استراحة محارب..

شعر: حسان الصاري

رضــــيتُ هــــواك مـــن بعـــد الـــتحدي
وعــــدت إليــــكَ والعــــنوان وَجـــدي

بعــــادي عــــنك زيــــنه غـــروري
وبطــــئي فـــي الـــرجوع نمـــاه بُعـــدي

وتـــرحالي بعيـــداً عـــنك كفـــرٌ
أضــــعت بــــه عــــلى الأيــــام رشـــدي

رجعـــت وأدمعــــي الحــــرَّى كـــتابٌ
ســـيقرؤه قســـاة القـــلب بَعـــدي

لقـــد حـــاولت أن أُلغيـــك مـــني
فـــلم أقـــدر عـــلى دفعــي وصـــدي

لأنـــي أنـــت كيـــف أســـل روحــي؟
وأبـــقى أمضـــغ الأحـــزان وحـــدي

هـــبي أنـــي اســـتطعت وذاك وهـــمٌ
ســـأبحث عـــنك فـــي طيّـــات جـــلدي

ســـأبحث عـــنك حـــتى فـــي صـــراخي
وفـــي تـــرجيع أنـــاتي.. وردي

وفـــي همســـي الخفيـــت وفـــي ضـــميري
وفـــي دمعـــي وفـــي وديـــان خـــدي







سـأبحث عـنك فـي نبضـات قلـبي
وفـي تـرتيل قـرآني ووِرْدي

لأنـك صـرت مـنذ الأمـس عمـري
سـأدفن عهـد حـرماني وسـهدي

أنـرت عوالمـي لوَّنـت دربـي
مـلأتِ بيـادري ورويـت وردي

نـثرت الـنعيمات عـلى طـريقي
أضـأتِ مشـاعلي حطّمـت قيـدي

فهـذا الصـبح ميـلادي وعمـري
وهـذا اليـوم مـنذ الآن سـعدي

وهـذا المـائجُ المضـفورُ قمحـي
وهـذا الـثغرُ إكسـيري وشـهدي

وهـذا المتـلع الـنهدين حصـني
ألـوذ بـه إذا مـا جـدَّ جِـدي

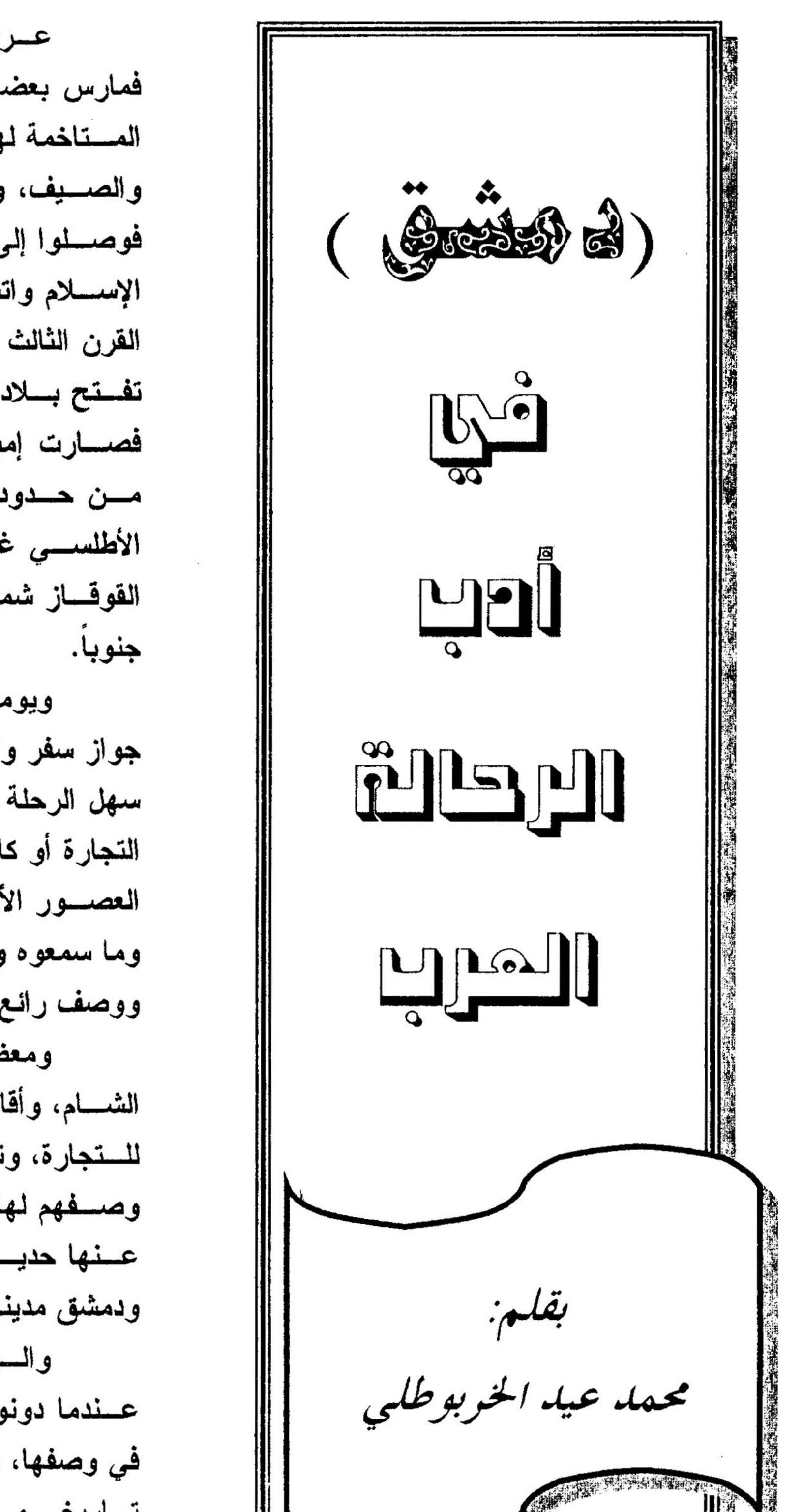
رجعـت إليـك فانطفـأت شـروري
وضـاع بـزحمة الأشـواق حقـدي

خذيـني مـن يـديَّ وعانقيـني
فقـد ألقيـت أسـلحتي وبـندي

رجعـت فـلو سـألت الهجـر عـني
لقـال عرفـته وارتـاح عـندي

وعـاد إليـك أمضـى مـن عقـاب
يعـود لعشـه بعـد الـتحدي



عرف العرب الرحلة قبل الإسلام، فمارس بعضهم الترحال في مواطنهم والبلدان المتاخمة لهم، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف، ورحل بعضهم عن طريق السفن فوصلوا إلى الهند وأفريقية، ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة دولته وما أن جاء القرن الثالث الهجري حتى كانت جيوش العرب تفتح بلاد ما وراء النهر وبلاد الأندلس فصارت إمبراطورية العرب المسلمين ممتدة من حدود الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً.

ويومها لم يكن في هذه الدولة الواسعة جواز سفر ولا تأشيرة خروج من بلد لآخر مما سهل الرحلة لمن أراد السفر في طلب العلم أو التجارة أو كلاهما معاً. فكثر الرحالة العرب في العصور الأولى والوسطى ودونوا ما شاهدوه وما سمعوه وما لاقوه في رحلاتهم بسرد سلس ووصف رائع للأحداث.

ومعظم الرحالة دخلوا مدينة دمشق الشام، وأقاموا بين جنباتها إما لطلب العلم أو للتجارة، وتنزهوا في غوطتها وروابيها فجاء وصفهم لها وصف المحب المشتاق، وتحدثوا عنها حديث العاشق الولهان، وكيف لا..! ودمشق مدينة السحر والعجائب.

والرحالة العرب تكلموا عن دمشق عندما دونوا رحلاتهم فجاءت نصوص كثيرة في وصفها، ولم يخل كتاب جغرافي أو أدبي أو تاريخي من الحديث عنها.. وسأختار بعض النصوص للرحالة العرب في وصف دمشق.

١ - ابن الفقيه الهمذاني المتوفى بعد سنة ٢٩٠هـ، صنف كتاباً سماه (البلدان) بعد أن قام برحلة طويلة. وقد وصلنا مختصر له وفيه قسم خاص عن دمشق وفضلها والشام وتسميتها، وذكر الأحاديث الشريفة التي وردت فيها مثل: ((الشام صفوة الله من بلاده، وإليه يجتبي صفوته من عباده، يا أهل اليمن عليكم بالشام فإن صفوة الله من الأرض الشام)).

وذكر قول ابن القرية للحجاج لما سأله عن الشام فقال: "عروس في نسوة جلوس كلهن يزفنها ويرفدنها"

وذكر قول يحيى بن أكثم عن دمشق: "ليس في الأرض بقعة أنزه من ثلاث بقاع: قهندز سمرقند وغوطة دمشق ونهر الأبلة".

وبعد ذلك ذكر موقعها الجغرافي وفتحها. وقول البحتري في دمشق:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مُطريها بما وعدا
إذا اردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا

ثم ذكر مسجدها وأبوابها.

٢ - البلخي المتوفي سنة ٣٢٢هـ عالم كبير جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، صنف حوالي ستين مصنفاً، وأهم مصنفاته (صورة الأقاليم) وهو مصنف جغرافي كبير وما يزال مخطوطاً، لكن الباحث صلاح الدين المنجد نشر منه النص المتعلق بدمشق ومنه قوله: "مدينة دمشق، وهي من أجل مدن الشام، وهي في أرض واسعة بين جبال، تحف بها مياه كثيرة وأشجار وزروع متصلة، وتسمى تلك البقعة الغوطة، ومخرج مائها من تحت كنيسة يقال لها الفيجة، وهو يسقي دمشق وبيوتها والغوطة وقراها".

٣ - الإصطخري المتوفى سنة ٣٤٦هـ، مصنف معروف قام بسياحة طاف فيها بلاد العرب وبعض بلاد الهند فقد كان محباً للأسفار والرحلات فصنف كتابه (المسالك والممالك) وزوده بالخرائط المفصلة، ولما تكلم عن دمشق وموقعها تكلم عن مائها وغوطتها ومسجدها وطولها وعرضها، فجاء كلامه كلام العالم المتمكن من كل العلوم.

٤ - أما المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ فقد زار دمشق عدة مرات ذكر ذلك في كتابه (مروج الذهب) وله عدة كتب عن رحلاته، فقد تكلم عن دمشق وعمن بناها ومسجدها وأسواقها وقصورها وأبوابها وأوصافها وموقعها ومن حكمها إلى تاريخه وقال: "دمشق طولها سبعون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة".

٥ - وللأصبهاني أبو الفرج المتوفى بعد سنة ٣٦٢هـ صاحب كتاب (الأغاني) كتاب سماه (الديارات) وقد جمع فيه أخبار الأديرة المعروفة في عصره بالعراق والشام وفلسطين، وحشد فيه أخبار من مر بها من الخلفاء والشعراء والأمراء والظرفاء، والأديرة التي كان يرتادها بنفسه. وقد وصلنا منه نتف متفرقة في كتب الأدب قام بجمعها جليل العطية، ومما ذكره أبو الفرج دير سمعان

بدمشق قال: "هو بنواحي دمشق بالقرب من الغوطة، حوله البساتين والأنهار وعنده دفن عمر بن عبد العزيز

وقال: ".. وأما دير فطرس ودير بولس فهما بظاهر دمشق بنواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة بين البساتين والأشجار والمياه. وأما دير مران فهو بناحية من دمشق على تلة مشرفة على مزارع ورياض بهيجة نزهة، نزل به الرشيد واستحسنه وأعجبه إشرافه على بساتين حسنة وقد أكل فيه من طعام قدمه له راهب الدير بعد أن جالسه وحادثة وكذلك نزل فيه المستعصم".

٦- وللمقدسي المتوفى سنة ٣٣٥هـ كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وهو شخصية عجيبة ومهمة، اعتبره المستشرقان الروسي (كراتشكوفسكي) آخر عظماء المدرسة الكلاسيكية في الجغرافية العربية، بينما يعتبره المستشرق الألماني شبرنكر أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة لأنه لم يسبقه شخص في إتساع أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة. فكتابه من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة، لذلك يعد من أهم المصادر في إعطاء المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية، فهو غني جداً، ويلمس القارئ فيه أصالة الوصف المستند إلى المشاهدة الشخصية، فهو يتكلم عن دمشق بما رآه بأم عينه وليس نقلاً عن غيره، قال: "دمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية، وقصورهم وأمشارهم، بنيانهم خشب وطين، وعليها حصن أُحدث وبنيانه من طين، أكثر أسواقها مغطاة، وهو بلد قد خرقته الأنهار، وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار، مع رخص أسعار، وثلج وأضداد، لا ترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فواراتها، ولا أحزم من أهلها".

ثم أسهم في الحديث عن أبوابها ووصف مسجدها وكأنه هو الذي بناه..

٧- والشريف الأدريسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ زار كثيراً من الأقاليم والأماكن غير المألوفة، فصنف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ووصف فيه دمشق فقال: "دمشق من أجمل بلاد الشام وأحسنها مكاناً، وأعدلها هواء، وأطيبها ثرىً، وأكثرها مياهاً، وأغزرها فواكه، وأعمها خصباً، وأوفرها مالاً، لها جبال ومزارع تعرف بالغوطة..".

وقال: "دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات، فديباجها يضاهي ديباج الروم..".

وقال عن حلوياتها: "وأما الحلاوات فيها فمنها ما لا يوجد بغيرها ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة..".

٨- ولعبد المنعم الجلياني الأندلسي المتوفى سنة ٦١٢هـ عدة كتب وعشرة دواوين ومقامات أدبية منها مقامة في مدح الشام ودمشق وهو رحالة عاصر ابن جبير، قال: "وإن مدينة جلق لمن أبدع ما خلق، جلل ظاهرها الزاهرات الخصب والإيناس، وتخلل باطنها الطاهرات الذكروباناس، يطرد بالتنظيف

أدرانها، ويبرد في المصيف بحرانها، ويسري عروقاً في أعضائها نابضة، كأن القنوات في أزقتها أفواه تمج فضل ريقتها.."

ووصف الغوطة وجمالها وزهرها ومائها وفاكهتها بحديث جذاب طويل.

وهذا ما يسمى بالجغرافية الأدبية، وله قصيدة يمدح فيها دمشق والربوة والغوطة، قد ذكرها محمد كرد علي في كتابه غوطة دمشق. مطلعها:

وليلة الربوة الشماء معلمة
حتى الصباح بروح الذكر نحييها
مأوى ابن مريم في سرى سياحتها
قد بوركت بمعانيه مغانيها

٩- أما ابن جبير الأندلسي المتوفى سنة ٦١٤هـ فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق وكما دخل دمشق دهش بازدهارها العلمي وجاء وصفه لها آية في الحسن. ومما قاله: "دمشق جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وعروس تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وتشرفت بأن أوى الله المسيح وأمه إلى ربوة ذات قرار معين، ظل ظليل وماء سلسبيل.."

وقال: "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها.."

ثم وصف مسجدها بوصف دقيق عجيب حتى أنه صعد للقبة ووصفها من داخلها.

١٠- وشيخ الربوة الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧هـ ألف كتابه الشهير (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) وقد ضم معلومات نفتقدها في باقي المؤلفات، خاصة ما يتعلق بالشام وفلسطين فيعتبر كتابه مصدراً أساسياً لجغرافية وتاريخ الشام، ووصف دمشق وضواحيها وأنهارها ومسجدها.

ومما ذكره عن دمشق: "دمشق مقسومة ثلاث قسمات: قسم مبثوث العمارة في غوطتها، لو جمع لكان مدينة عظيمة ما بين جواسق وقصدر وقاعات واسطبلات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الأمهات.. والقسم الثاني: تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنيّ وجداول ومسارب ومخازن وكلها تحت الأرض.. والقسم الثالث: مسوّرها وما فيه وحوله من المعمور".

وتميز بوصفه الدقيق لصناعة تقطير الورد المعروف عن الدماشقة، فذكر حقول الورد الدمشقي ومراحل التقطير كلها من قطف الزهور إلى حمل العطر المستخرج منه إلى سائر البلاد كالحجاز والهند والصين.

وما ذكرناه عن دمشق ووصفها في أدب الرحالة ما هو إلاّ نذر يسير فلو جمع ما ذكر في كتب الرحالة عن دمشق لبلغ المجلدات الكبار ولكن ألمحنا بإشارة إلى قيمة هذا الأدب الذي عرفه الأدب العربي في القرن الثالث الهجري، ولعلنا بذلك نوفي دمشق بعض حقها علينا..




شراع في مهب النور..

شعر: نبيل قصاب باشي

أطيــــافي تنســــجُ فـــي ذاتـــي
تيهـــــاً، فتضـــجُّ مـــــتاهاتي
ويـــــروحُ يُطـــاردني مـــاضٍ
ويحاصـــرني شـــبحُ الآتـــي
لا أدري هــــل ألـــقى حـــتفي
مـــا بيـــنَ حيـــاتي وممـــاتي؟!

*　　*　　*

فـــي جوهـــرِ كُـــنهي حانـــاتٌ
نشـــوى بأحـــاجي الـــلّذاتِ
أتقمَّـــــصُ فيهـــا "رابعـــةً"
فـــأرى فـــي مـــرآها ذاتـــي
فـــتروحُ تخـــايلُ لـــي فِـــتَنٌ
مـــا بيـــنَ صـــلاةٍ وصـــلاةِ







فيفجّـــــرُي ألـــــفُ نـــــداءٍ

فـــي الـــنَّفسِ وتغـــلي نـــزواتي

*　　　*　　　*

وشـــــراعي إن أبحـــرَ يومـــاً

فـــي بحـــرٍ بحـــيٍّ عـــاتِ

ألفيـــــتُ خيـــالاتي غَـــرِقَتْ

فـــي أوهـــامٍ مـــن سُـــبحاتِ

والوهـــمُ الأحمـــقُ يقـــذفُ بـــي

فـــي أتـــونِ مـــن رغـــباتِ

أمـــواجٌ تخـــبطُ أمواجـــاً

حـــتى ضـــاعتْ فـــيَّ جِهـــاتي

فطفقـــــتُ أجـــدّفُ مـــنهمكاً

كيمـــا ترســـو بـــي موجـــاتي

وتضـــيئ ســـمائي بارقـــةً

وتفـــلَّ ريـــاحي غيمـــاتي

ويـــلوِّحَ لـــي طيـــفٌ مـــن نـــو

رِ شـــراعِ أمـــانٍ ونجـــاةِ







أن حـــدّقْ – حيــرانُ – وجــدّفْ
نحــوي، تــلمسْ طيــبَ هِــباتي
نـــوراً مـــن وهـــجٍ عُــلويٍّ
أضـــفى، وظـــلالَ نُعَيْمـــاتي
نـــورَ الإيمـــانِ، ومـــا أشـــها
هُ، إذا مـــا فاضـــتْ ظُـــلُماتي
نـــورَ الإيمـــانِ يبصّــرُني
دربـــي، ويـــبدُّ رَوْعَـــاتي

* * *

دعـــني فبســـاطُ الـــريحِ غـــدا
بـــيْ نحـــوَ نعيـــمِ الجـــنَّاتِ
فهـــناكَ أمـــوجُ وفـــي خـــلدي
مـــا لا يُحصـــى مـــن خطـــراتِ
لكـــن لـــن يهـــدأ لـــي ظمـــأٌ
مـــا لـــمْ ترفعـــني حســـناتي
لأرى وجـــــه "الــــباري" وأرى
عرشـــاً لا يُســـمى بـــنُعُات






الأستاذ مختار فوزي النعال أديب وباحث، رأى نور الحياة في مدينة إعزاز عام ١٩٢٦م. تعلم القرآن في الكتاب، ثم دخل المدرسة الابتدائية، وبعدها انتقل إلى حلب، وتلقى علومه في ثانوية التجهيز الثانية وبعد أن حصل على الثانوية العامة، عين معلماً في مدرسة العرفان بحلب سنة ١٩٤٥- ١٩٤٦م ثم نقل إلى عين العرب سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ م. وبعد جلاء المحتل عن سورية، انتسب للجيش العربي السوري وبقي فيه إلى سنة ١٩٦٦م حيث أحيل إلى التقاعد، وكان يقطن عندها في مدينة القنيطرة وعندما حدثت حرب حزيران عام ١٩٦٧ نزح مع النازحين وعاد إلى حلب، واستدعي إلى الخدمة الاحتياطية سنة ١٩٧٠م، وأثناء ذلك أسس مكتب الشهداء في المنطقة الشمالية وعين رئيساً له، وظل يشغله إلى سنة ١٩٧٩م عندها أحيل إلى الحياة المدنية وتفرغ للكتابة والبحث..

لقد كان الأستاذ مختار محباً للعلم، فبعد أن ترك الجيش عام ١٩٦٦م سجل في جامعة بيروت العربية، وحاز على إجازة في الآداب عام ١٩٧١م.

أعماله الأدبية

لقد شغف الأستاذ مختار فوزي النعال بالقراءة والمطالعة منذ الصغر، فقرأ كتباً ثقافية وأدبية، مما صقل موهبته الأدبية، فبدأ يكتب ويدبج الموضوعات الإنشائية البليغة، وأثناء خدمته في الجيش، كان يكتب المقالات وينشرها في الصحف والمجلات المحلية والعربية مثل: مجلة الجندي، وعصا الجنة، ومجلة الدنيا، ومجلة الرقيب وغيرها..

ولم يكتف بذلك بل ألف عدة كتب أدبية، فكتب مجموعة شعرية بعنوان(نزوات) وهي شعر نثري أو ما يسمى اليوم (قصيدة النثر) طبعت نزوات عام ١٩٤٦ في مطبعة الاعتدال بدمشق، وصدرت بمقدمة كتبها مدير

المعـــارف بحماة – آنذاك – الشاعر بدر الدين الحامد.

وكـــان للأديـــب مخـــتار فوزي النعال لقـــاءات مـــع الشاعر اسماعيل عامود وغيره يقـــرؤون عـــلى بعضـــهم ما يكتبون، ويبدون ملاحظاتهم النقدية.

وصدر له قصة (إرم ذات العماد) التي نحا فيها المنحى الأسطوري وطبعت في مطبعة الضياء بحلب عام ١٩٤٤.

وبعـــد أن تقـــاعد وأنـــهى كل أعماله الوظيفيـــة تفـــرغ للـــبحث، وانهمك في العمل الموسوعي والبحوث القرآنية..

ولكـــنه أثـــناء ذلـــك أصدر مختارات شـــعرية، نقـــف عـــندها قبل أن نبحر معه في ميادين البحث.

المختارات الشعرية

المخـــتارات معروفة في أدبنا العربي مـــنذ حماســـة أبـــي تمـــام وغيـــره، وتجمع المختارات على أساس من الإعجاب والجودة، وهـــذا مـــا نجده في الكتاب الذي أعده الأستاذ الأديـــب مختار فوزي النعّال وأسماه (المختار مـــن أحلى قصائد الغزل وأجمل الأشعار) جمع فـــي هـــذا الكـــتاب مجموعة من عيون قصائد الحـــب والغزل التي عبر فيها الشعراء القدامى والمعاصـــرون عـــن لواعـــج الحب التي كوت قـــلوبهم، وتـــباريح الهوى التي ملكت كيانهم، فذرفـــوا العـــبرات، وخـــرجت مـــن صدورهم الزفـــرات شـــوقاً إلى المحـــبوب، فأبدعوا في وصف جمال الحبيب وحسنه ورقته وظرافته.

إن القـــارئ لهـــذه القصـــائد يجد أنها اخـــتيرت بعـــناية تـــنم عن ذائقة أدبية رفيعة للأديـــب المخـــتار، وتدل على مقدرته النقدية واطلاعه على الشعر العربي القديم والحديث.

تضـــمن الكتاب قصائد لسبعين شاعر منذ عصر الجاهلية إلى العصر الحاضر، بدأها بالشـــاعر امـــرئ القيـــس وأنهاهـــا بالشاعر المعاصـــر مصـــطفى أحمـــد النجار، وقد رتب الشـــعراء وفـــق تـــاريخ وفاتهم أما الشعراء الأحيـــاء، فجاءوا حسب الترتيب الألفبائي وفق اسم الشاعر الأول.

وقد صُدِّر الكتاب بمقدمة للمؤلف بين فيها منهجه في الاختيار وهدفه منها.

إن هـــذه المختارات تمكن القارئ من الاطـــلاع عـــلى تراث أمتنا الشعري في الغزل والحب العفيف الذي يحمل عاطفة رقيقة وفكرة ســـامية ولم تتضمن القصائد المختارة ما يثير الغرائـــز ويهيج الشهوات التي نعثر عليها هنا وهناك في الشعر العربي.

قـــدم الأســـتاذ الأديب المختار قصائده وفـــق مـــنهج واضـــح، قدم بطاقة تعريف لكل شـــاعر تضمنت اسمه ومولده ونشاطه الأدبي، وأعمالـــه وتـــاريخ وفاته إن كان ميتاً، ثم يلي ذلـــك قصـــيدتان للشـــاعر، وشـــرح للكلمات الغامضـــة فـــي الهـــامش وخاصة في القصائد القديمـــة. إن هـــذه المخـــتارات تمكن الدارس والقـــارئ مـــن الإبحار في قارب الحب والغزل الذي شدا به الشعراء.

هـــذه قصـــيدة من قصائد ابن الرومي يقول في مطلعها:

يـــا خليـــلي تيَّمتـــني وحيـــد
ففـــؤادي بهـــا معـــنى عميـــد
غـــادة زانهـــا مـــن الغصـــن قـــد
ومـــن الظـــبي مقلـــتان وجيـــد
وزهاهـــا مـــن فرعها ومن الخدين
ذاك الســـــواد والـــــتوريد
أوقـــد الحســـن نـــاره فـــي وحيد
فـــوق خـــد مـــا شـــابه تخديـــد
فهـــي بـــر بخدهـــا وســـلام
وهـــي للعاشـــقين جَهْـــد جهيـــد

وبعـــد أن أنجز كتاب (المختار) عكف عـــلى شعر الإمام الشافعي، واطلع على معظم

الكتب التي جمعت شعره، فوجد كل ديوان يختلف عن غيره ببعض المقطوعات الشعرية أو الأبيات، فقام بجمع هذه الأشعار من جديد وقارن بين الدواوين المطبوعة معتمداً الديوان الذي جمعه سليمان البوطي وأضاف إليه ما فاته وما نسب إلى الإمام الشافعي، ووضع للأشعار التي وردت في الديوان عناوين، وعلق عليها وشرح غامضها، وكتب مقدمة للديوان قدم فيها نبذة عن حياة الإمام الشافعي ومكانته الفقهية والشعرية، ثم قال: كان من الأغراض الشعرية التي استخدمها الإمام في شعره هي: الفقه، الحكمة، النصيحة، الموعظة، العبرة. وقد خلا شعره من الأغراض الشعرية التقليدية التي تداولها من سبقه من الشعراء كالفخر والمديح والغزل..

لقد وُفق الأستاذ مختار بما قدمه، وسيقبل القراء على ديوان الشافعي يقبسون من حكمه الشعرية (فالحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)

طبع (ديوان الشافعي) في دار الرضوان بحلب ٢٠٠٤. صُدِّر الديوان بقصيدة يقول فيها الشافعي:

دع الأيام تفعل ما تشاء
وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلداً
وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك في البرايا
وسرّك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب
يغطيه، كما قيل السخاء
ولا تُرِ للأعادي قط ذلاً
فإن شماتة الأعداء بلاء
ولا ترجُ السماحة من بخيل
فما في النار للظمآن ماء

أعماله المعجمية والموسوعية

توجه الأستاذ مختار إلى البحث والدراسة في التراث بعد أن كان يسبح في بحر الأدب، ولعل من أحد الأسباب التي وجهته هذه الوجهة اهتمام والده بالتراث، إذ كان والده خطاطاً له لوحات عديدة وفريدة وعمل أستاذاً للخط في دار المعلمين، ومما يدل على تعمقه بمفردات التراث أن سمى أبناءه أسماء مركبة تدل على سنة ميلادهم بحسب نظام (الجمل) المعروف عند العرب، حيث يقابل كل حرف من الحروف العربية برقم ويكون مجموع أرقام الحروب لكل اسم يشير لسنة مولده بالسنين الهجرية. وعلى هذا يكون تولد مختار فوزي مساوياً ١٣٤٤هـ.

وكانت بداية البحث والدراسة عند الأستاذ الباحث المفردات القرآنية التي جمعها في كتاب (أضواء على مفردات قرآنية) ووضع هذا الكتاب ليكون نموذجاً يحتذى في التفسير القرآني بدلالة السياق وتفرد في كتابه في بعض الآراء مما أثار حولها النقاش، كما أنها نالت إعجاب كبار الكتاب.

وعكف في التسعينات من القرن العشرين على إعداد الموسوعة الإسلامية الميسرة التي صدرت عن دار صحارى في حلب ١٩٩١ في عشرة مجلدات بإشراف الدكتور الشيخ محمود عكام والتي حوت ثلاثة آلاف مادة، كتب منها الأستاذ مختار /٦٢٠/ مادة، وشارك في الباقي حوالي /١٥٠/ كاتباً من خيرة العلماء والباحثين.

وبعد أن انتهى من إنجازها عاد إلى القرآن الكريم يقطف من ثماره اليانعة ويقدمها للناس، فألف معاجم موضوعية لألفاظ القرآن هي على التوالي:

١- معجم الألفاظ النبات في القرآن.
٢- معجم ألفاظ الحيوان.
٣- معجم ألفاظ الإنسان.
٤- معجم ألفاظ المصنوعات.

٥- معجم ألفاظ الكون.
٦- معجم ألفاظ المكان.
٧- معجم ألفاظ الزمان.
٨- معجم ألفاظ الأخلاق.
٩- معجم ألفاظ الأمم والشعوب والقبائل.
١٠- معجم الألفاظ التجارية والمالية.
١١- معجم ألفاظ الحالات النفسية.

وقد اتبع في إعدادها المنهج التالي:

١- ذكر عدد مرات اللفظ في القرآن، وأماكن ورودها في السور والآيات.
٢- اختار آية تتضمن اللفظة، ثم وضعها تحت عنوان آية مختارة.
٣- شرح كلمات الآية المختارة - وخاصة المفردة المدروسة - لغوياً وبين وجوه القراءات في الآية.
٤- ذكر لمحة عن المفردة المذكورة من حيث أسمائها وصفاتها وأنواعها حسب تصنيفها.
٥- ذكر ما قاله المفسرون قرآنياً في اللفظة ومعانيها المشهورة في الآية المختارة.
٦- ذكر الحكم الفقهي المتعلق بالمفردة إن كان هناك حكم فقهي يتعلق بها.
٧- اختار حديثاً شريفاً وردت فيه اللفظة.
٨- وقد يذكر مثلاً يتعلق باللفظة.
٩- وقد يشير إلى تعبير اللفظة في الرؤيا مستعيناً بكتب تفسير الأحلام.

إن هذه المعاجم جمعت محاسن المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن، وأضافت إليها أموراً جديدة، فدلت على معنى اللفظة في اللغة، وأشارت إلى معلومات تخصصية التي تصنف المفردة في مجالها، وذكرت بعض الأحكام الفقهية فيها، فجاءت معاجم لغوية فقهية أدبية لما فيها من أمثال أدبية قيلت في المفردة.

لقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في إعدادها حتى جاءت مستوفية للغرض واضحة دقيقة، وقد أجاد في ترتيب معاجمه وتوثيقها، فقد ذكر في الهوامش أسماء جميع المصادر والمراجع التي اعتمدها، وكان يتدخل أحياناً فيما قاله العلماء حول المفردة، فيخطئ ويصوب ويصحح أو يضيف.

وبعد أن أنهى المعاجم جمع بعضها في سفر سماه (موسوعة الألفاظ القرآنية) جمع فيها كلمات المعاجم المختارة ورتبها ترتيباً ألفبائياً، كما جاءت في القرآن دون تجريدها وإرجاعها إلى الأصل، وشرح الكلمة لغوياً وأورد معناها كما جاء في كتب المفردات والتفسير واختار آية قرآنية ورد فيها اللفظ وفسرها، وأورد ما قاله المفسرون في اللفظة المختارة، وذيل الموسوعة بالفهارس العامة لجميع الألفاظ التي وردت فيها، وألحق فهارس موضوعية هي فهارس المعاجم المختارة ضمن الموسوعة.

وقد طبعت هذه الموسوعة في مكتبة دار التراث بحلب عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

إن الأستاذ مختار فوزي النعال يعد بجدارة رائداً من رواد المعاجم القرآنية الموضوعية، بالإضافة إلى أنه أديب كتب القصة والمقالات الأدبية والاجتماعية، وتذوق الشعر فاختار منه الراقي، وجمعه في كتب، وهو باحث متمكن من أدوات البحث كتب كتاباً في (أسماء الله الحسنى) وآخر عن (نساء نزل فيهن قرآن ولم يسمهن) وصدرتا عن دار الرضوان بحلب عام ٢٠٠٢م.

ولا يزال يؤلف ويثري المكتبة بالكتب القيمة، فنحن أمام أديب وعالم، يذكرنا بعلمائنا الذين كان معظمهم، يجمع بين الأدب والعلم.

نسأل الله أن يمده بالعون والتوفيق والصحة ليواصل أعماله الفريدة.